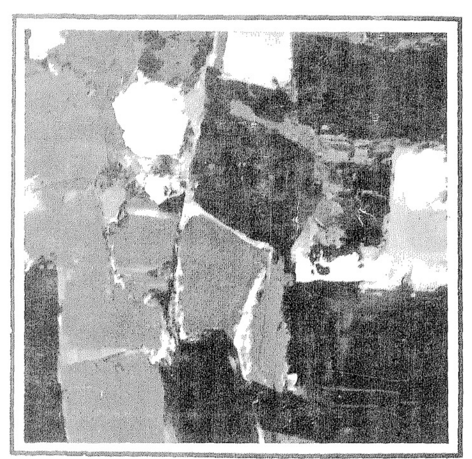
إيمانويل كارير



رحلة الثلج

قصة عالمية

ترجمة
معن أحمد عاقل

زهير الحمو

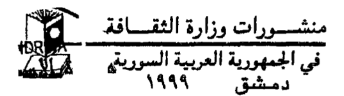
إيمانويل كارير

رِحلَة التَّزلج

قِصَّة عالَمِيَة

تَرجَمة

معن أحمد عاقل



منشـــورات وزارة الثقـــافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

Emmanuel Carrère

La Classe de neige

Recit

رحلة التزلج : قصة عالميـة = La classe de neige /
ايمانويل كارير ؛ ترجمـة معن أحمد عاقـل . ـ دمشق :
وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . ـ ١٧٣ ص ؛ ٢٠ سم .

١ ـ ٨٤٣ ف ك ا ر ر ٢ ـ العنوان ٣ـ العنوان الموازي
٤ ـ كاريـر ٥ ـ عاقـل
مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع ـ ٨٥٨ /١٩٩٩/٥

– ١ –

حاول نيكولا ، فيما بعد ولزمن طويل يمتد حتى الآن ، أن يتذكر الكلمات الأخيرة التي خاطبه بها والده . قال له على باب الشاليه إلى اللقاء ، وكرر النصائح بالحذر ، لكن نيكولا كان متضايقاً جداً من حضوره ، ويتعجل أن يراه يغادر لدرجة أنه لم يصغ إليه . كان يحقد عليه لحضوره ، ولأنه جذب نظرات خالها ساخرة فتهرب من قبلة الوداع مطأطئاً رأسه . كانت هذه الحركة ستكلفه التأنيب في الحياة الأسرية الخاصة لكنه يعلم الآن ان والده لن يتجرأ على ذلك أمام الناس .

قبل ذلك ، اضطرا للكلام في السيارة . وقد وجد نيكولا ، الجالس في المقعد الخلفي ، صعوبة في سماع الكلمات بسبب ضجيج ماسحة الزجاج المندفعة الى أقصى حد لإزالة البخار عن الزجاج . كان همه أن يعرف إن كانا سيجدان محطة شل على الطريق . إذ انه مقابل أي شيء في العالم ، ما كان ليقبل بشراء الوقود هذا الشتاء من مكان آخر ، لأن

شل تقدم قسائم تتيح ربح رجل بلاستيكي يرتفع عن جزئه الأعلى غطاء كغطاء صندوق ، كاشفاً عن الهيكل العظمي والأحشاء : يمكن سحبها وإعادتها وهكذا يتآلف المرء مع تشريح الجسم البشري . لقد ربحوا من محطات فينا ، في الصيف المنصرم، فرشاً مملوءة بالهواء وقوارب قابلة للنفخ. وفي مكان آخر ، ربحوا مجلات مصورة اقتنى منها نيكولا مجموعة كاملة . كان يعتبر نفسه محظوظاً ، من هذه الزاوية على الأقل ، بسبب مهنة والده الذي يقضي وقته على الطرق ويضطر إلى ملء الخزان كل يومين أو ثلاثة . قبل كل جولة من جولاته ، كان نيكولا يستعلم عن خط السير على الخارطة، ويحسب عدد الكيلو مترات ويحوله إلى قسائم يرتبها في خزنة بحجم علبة السيكار ، وحده من يعرف رمز فتحها . لقد قدمها له والداه في عيد الميلاد ـ قال والده « من أجل أسرارك الصغيرة » ـ وحرص على حملها في حقيبته . ود أثناء السفر أن يَعُدّ القسائم ثانية ويحسب ما يلزمه منها أيضاً ، لكن الحقيبة كانت في صندوق السيارة ورفض والده التوقف لفتحه : سيغتنم الاستراحة لفعل ذلك . في النهاية ، لم توجد قبل الشاليه محطة شل ولا استراحة . وعده والده حين رآه خائباً أن يسير من الآن حتى نهاية رحلة التزلج بما يكفي ليكسب التمثال التشريحي . لو أنه يعهد إليه بالقسائم ، فسوف يجده لدى عودته إلى المنزل .

تم الجزء الاخير من المسيرة على طرق صغيرة ، ليست مغطاة بالثلج بما يكفي ليتحتم وضع السلاسل على العجلات ، وهذا أيضاً خيب أمل نيكولا . كانا قد سارا على الأوتوستراد آنفاً . خلال برهة ، تباطأت حركة المرور ، ثم توقفت لبضع دقائق . ربت والد نيكولا على المقود منزعجاً وهو يتذمر من أن هذا ليس أمراً طبيعياً في يوم عادي من الأسبوع في شهر شباط . لم يكن بوسع نيكولا أن يرى من المقعد الخلفي إلا بروفيله الضائع وقذاله الغليظ الغارق في ياقة المعطف . كان هذا القذال وهذا البروفيل يعبران عن الانشغال ، عن غضب مرير وعنيد . استأنفت السيارات أخيراً سيرها . تنهد والد نيكولا واسترخى قليلا وقال : لا بد أنه مجرد حادث . اغتاظ نيكولا من نبرة الارتياح هذه : كما لو أنه يمكن اعتبار الحادث أمراً مرغوباً ، لأنه يؤدي فقط الى ازدحام قصير الأجل ، ينحل مع وصول الاسعاف . كان مغتاظاً ، لكنه مفعم بالفضول أيضاً . كان يأمل أن يرى، وأنفه ملتصق بالزجاج ، السيارات المحطمة والأجساد المدماة التي يحملونها على النقالات في دوران الأضواء ، لكنه لم ير شيئاً مطلقاً وقال والده المندهش إن الأمر ينبغي ألا يكون كذلك في نهاية المطاف . اختفى الازدحام وظل سره ماثلاً .

— ٢ —

انطلقت رحلة التزلج على متن الحافلة مساءً . لكن قبل ذلك بعشرة أيام وقعت كارثة ؛ عُرضت صورها في الأخبار المتلفزة : شاحنة ثقيلة صدمت حافلة مدرسية ، ومات كثير من الأطفال محروقين بفظاعة . كان اليوم التالي معداً لينعقد في المدرسة اجتماع من أجل الاعداد لرحلة التزلج . كان على الأهل أن يتلقوا التعليمات الاخيرة المتعلقة بأمتعة اطفالهم ، الملابس التي ينبغي تعيينها ، المغلفات المجهزة بطوابع التي ينبغي تزويدهم بها لكي يراسلوا المنزل ، المكالمات الهاتفية التي كان من الأفضل تجنبها بالمقابل ، إلا في حالة الاضطرار القسري ، لكي يشعروا بأنفسهم تماماً حيث سيكونون ولا يتمسكون بها كخيط اتصال مع وسطهم الأسروي . صدم هذا الأمر الأخير عدة أمهات: إنهم ما يزالون صغاراً جداً . . . فكررت المعلمة بصبر أن هذا لمصلحتهم . الهدف الأساس لمثل هذه الرحلة هو تعليمهم الطيران بأجنحتهم الخاصة .

قال والد نيكولا عندئذ ، وبفظاظة كافية ، إن الهدف الأساسي للمدرسة ، برأيه ، ليس فصل الأطفال عن أسرهم ، وانه لن يزعجه الاتصال الهاتفي لو رغب به . فتحت المعلمة فمها لتجيب ، لكنه قاطعها ، لقد جاء ليثير مشكلة أخطر بكثير : مشكلة الأمان في الحافلة . كيف يتحقق بأنه لن تحصل كارثة كتلك التي شاهد جميع الناس صورها بالأمس ؟ اجل ، كيف نتحقق من ذلك ؟ ردد الأهل الآخرون ، الذين لم يتجرؤوا على طرح السؤال ، ولكن لا بد أنهم فكروا به أيضاً . أقرت المعلمة بأنه لا يمكن لأحد التحقق من ذلك مع الأسف . ما استطاعت قوله فقط إن الناس تبالغ كثيرا بمسألة الأمـان ، وأن السائق سيقود بحذر وأن المخاطر المعقولة هي جزء من الحياة . ولكي يتحقق الأهل تماماً أن اطفالهم لن يسحقوا بسيارة ، عليهم الا يدعوهم يخرجون من المنزل أبداً ، وحتى في المنزل ، لن يكونوا بمنأى عن حادث بآلة منزلية ، أو ببساطة يصيبهم المرض . أعجبت دقة الحجة بعض الأهل لكـن الكثيرين صُدموا بالحتمية التي عرضت بها المعلمة الأمر . بل إنهـا كانت تبتسم وهي تقول ذلـك .

علق والد نيكولا قـائلاً « يتضح تمامـاً أنهم ليسوا اطفالك » فأجابت المعلمة وهي تكف عن الابتسام أن لديها طفل أيضاً وانه ذهب العام الماضي في رحلة تزلج بالحافلة .

عندئذ ، أعلن والد نيكولا أنه يفضل اصطحاب ابنه بنفسه إلى الشاليه : على هذا النحو يعرف على الأقل من يكون خلف المقود .

نبهت المعلمة إلى أن المسافة تزيد على الـ ٤٠٠ كم .
فليكن ، لقد قرر وانتهى الأمر !

دافعت المعلمة مجدداً : لكن هذا لن يكون أمراً جيدا بالنسبة لنيكولا . وبالنسبة لانسجامه مع المجموعة .

قال والد نيكولا : « سينسجم على الوجه الأكمل ؛ وضحك هازئاً : لا تقنعيني بأن وصوله في سيارة مع والده سيجعله منبوذاً » .

طلبت منه المعلمة أن يفكر في الأمر بجدية ، واقترحت عليه رؤية الاختصاصي النفسي الذي سيؤكد رأيها ، لكنها سلمت بأن القرار يخصه في المآل الأخير .

في اليوم التالي ، أرادت أن تكلم نيكولا بالأمر في المدرسة ، لكي تعلم من الذي أتى بالفكرة . سألته عما يفضله وهي تمشي بحذر كعادتها دوماً معه . عكر السؤال مزاج نيكولا . كان في قرارة نفسه يعلم جيداً أنه يؤثر السفر في حافلة مثل الجميع . لكن قرار والده قد اتخذ ، ولن يعدل عنه ، ولم

يكن نيكولا يريد أن يبدو ، امام المعلمة والتلاميذ الآخرين ، انه يعاني إكراهاً . رفع كتفيه وقال إن ذلك سيان بالنسبة له ، وأن الأمر جيـد هكذا . لم تلح المعلمة : لقـد فعلت ما بوسعها . الأفضل عدم تصعيد الموقف وقد اتضح أنها لن تغير في الأمر شيئاً .

- ٣ -

كان نيكولا ووالده في الشاليه قبيل حلول الليل . عندما وصلا مساءً ، كان الآخرون قد اخذوا درس التزلج الاول صباحاً ويمكثون الآن في القاعة الكبيرة بالطابق الأرضي حيث يعرض فيلم عن النبات والحيوان الألبي . توقف العرض لاستقبال القادمين الجديدين . بينما كانت المعلمة تتكلم مع والد نيكولا في الردهة وتقدم إليه المشرفين ؛ اخذ الأطفال يضجون في القاعة . كان نيكولا على العتبة يراقبهم دون أن يتجرأ على الإنضمام إليهم . سمع والده يسأل كيف كان درس التزلج ، فيجيبه المشرف ضاحكاً أنه كان يوجد قليل من الثلج ، وأن الصبية تعلموا التزلج على العشب بالأحرى ، إلا أنها كانت البداية . أراد والده أن يعلم أيضاً فيما إذا كانوا سينالون شهادة في نهاية الاقامة . جلد ظبي ؟ ضحك المشرف أيضاً وقال : « ربما كبة صوف » . كان نيكولا يتمايل من قدم لأخرى ووجهه ممتعض . عندما غادر والده أخيراً ، استسلم للعناق على مضض ولم يخرج لوداعه .

اصغى من الردهة بارتيــاح إلى محرك الديزل يهــدر على الفسحة ثم يبتعد .

كلفت المعلمة المشرفين بإعادة النظام واستئناف العرض، بينما كانت تهم بمساعدة نيكولا على تجهيز نفسه . سألته عن حقيبته لتضعها في عنبر النوم . نظر نيكولا حوله ، فلم ير الحقيبة . لم يفهم ما حدث .

« تمتم : ظننت انها موجودة هنا

ــ سألت المعلمة : هل أحضرتها ؟ »

اجل ، إن نيكولا يذكر جيداً حين وضعها في صندوق السيارة بين السلاسل وصناديق العينات الصغيرة لوالده .

« ولدى وصولكما ، هل أخرجتها من الصندوق ؟ »

هز نيكولا راسه وهو يعض على شفتيه . لم يكن متأكداً من ذلك . أو بالأحرى ، بلى : اصبح واثقاً انه نسي إخراجها منه . كانا قد نزلا ، ثم صعد والده ثانية ولم يفتح الصندوق في اية لحظة .

قالت المعلمة مستاءة « هذه حماقة كبيرة » . كانــت السيارة قد غادرت منذ خمس دقائق ، لكن الوقت تأخــر

جداً على اللحاق بها . أنتابت نيكولا رغبة بالبكاء ، غمغم أن هذا ليس خطأه . قالت المعلمة متنهدة : « كان بوسعك التفكير بهـا رغم كل شيء » . حـين شاهدت كم يبـدو تعيساً ، هدأت وهزت كتفيها وقالت إنها حماقة ، لكنها ليست خطيرة كثيراً . وسوف تتدبر الأمر بنفسها . على أية حال ، قد يتأكد والده بنفسه من ذلك سريعاً . ايدها نيكولا ، أجل ، عندما يفتح صندوق السيارة لكي يخرج صناديق عيناته . استنتجت المعلمة من ذلك أنه لن يتأخر في إعادة الحقيبة . قال نيكولا : أجل ، أجل ، وقد تشتت بين رغبته باستعادة أمتعته وخشيته من رؤية والده يعود .

« سألت المعلمة : هل تعلم أين ينوي التوقف للنوم ؟ »

لم يكن نيكولا يعلم ذلك .

أخذ الليل يحل الآن ، وهو ما كان يقلل احتمال أن يحضر والد نيكولا الحقيبة قبل صباح اليوم التالي . ينبغي إذاً إيجاد حل لأجل الليل . عادت المديرة مع نيكولا الى القاعة الكبيرة حيث اتى العرض على نهايته ويتم الاستعداد لفرش مائدة العشاء . كان يحس وهو يجتاز العتبة وراءها بالمشاعر المرهقة التي تساور الوافد الجديد الذي لا يكون أي شيء مألوفاً لديه ، والذي سيكون محط سخرية بالتأكيد . كان يشعر أن المعلمة تبـذل ما بوسعها لتحميه من العداوة

والسخرية . بعد أن صفقت بيديها لكي تلفت الإنتباه ، أعلنت بنبرة مازحــة أن نيكولا ، الشارد دوماً كعادته ، قد نسي حقيبته . فمن يود إعارته منامة ؟

تنص اللائحة المدونة على عدة نسخ أن يحضر كل واحد ثلاث منامات ، وكان الجميع قادرين على قبول هذه الإعارة ، لكن احداً لم يبادر الى ذلك . دون أن يتجرأ نيكولا على النظر الى حلقة الأطفال المحتشدين حولهما ، كان يقف قرب المعلمة التي كررت نداءها منزعجة قليلاً . سمع همهمات ، ثم عبارة لم يحدد قائلها ، لكن قهقهة عامة رحبت بها :

« سيبول فيها »

كانت هذه اذية مجانية ، ألقيت عرَضاً بالتأكيد ، لكنها اصابت الهدف . فما يزال يحدث لنيكولا أن يبلل فراشه ، لماماً لكنه رغم ذلك يخشى النوم في مكان آخر غير منزله . كان هذا أحد الدوافع القوية للقلق منذ أن كان الحديث يجري عن رحلة التزلج . قال أولاً إنه لا يرغب بالذهاب فيها . فطلبت والدته موعداً مع المعلمة التي طمأنتها : لن يكون الوحيد دون شك ، ومن جهة أخرى يختفي غالباً هذا النموذج من الإضطراب في الجماعة ، سيكفي في هذه الحال أن يأخذ منامة اضافية وحفاضاً لوقاية البطانة . كان نيكولا رغم هذه الكلمات المطمئنة قد تابع تحضير حقيبته بقلق :

كيف سيمكنه وضع الحفاض تحت الغطاء دون أن يلاحظه احد ما داموا سينامون في عنابر ؟ هذا الإنشغال وانشغالات اخرى من النوع نفسه عذبته قبل الانطلاق ، لكن حتى في أسوأ كابوس ما كان ليستطيع ان يتخيل ما يحدث له بالفعل : يجد نفسه محروماً من حقيبة وحفاض ومنامة ، ومقتصراً على استجداء واحدة يمنعونها عنه وهم يسخرون منه ، ومنذ وصوله انكشف تماماً ، كأن عاره مدون على وجهـه .

في النهاية، قال أحدهم إنه سيعيره منامة . إنه هودكان. وهذا أيضاً أثار الضحك ، لأنه كان الأكبر في الصف بينما نيكولا الأصغر ، حتى أنه كان يمكن التساؤل فيما إذا لم يكن العرض يهدف إلى مزيد من السخرية منه . لكن هودكان قاطع التهكمات قائلاً إن مـن سيزعج نيكولا سيواجهه ، فاعتبر كل واحد نفسه معنياً بذلك . ألقى عليه نيكولا نظرة امتنان قلقة . كانت المعلمة تبدو مرتاحة ، لكنها محتارة . كأنها تخشى فخاً . كانت لهودكان على الصبية الآخرين سلطة كبيرة يمارسها بطريقة مزاجية . على سبيل المثال . كانوا في الألعاب يتعينون نسبة له ، دون أن يعرفوا مسبقاً هل سيقوم بدور الحكم أو بدور زعيم العصابة ، وهـل سيحكم بالعدل أو يخرقه على نحو ساخر . كان بوسعه في بضع ثوان فاصلة أن يبدي نفسه لطيفاً للغاية أو فظاً للغاية

يحمي ويكافيء اتباعه ، لكنه يغضب عليهم بشدة أيضاً ، دون سبب ، ويستبدلهم بآخرين ظـل حتى ذلك الحين يستخف بهم أو يسيء معاملتهم . لم يكن المرء بصحبة هودكان يعرف ابداً على اي قدم يرقص . يعجب به ويهابه . حتى الراشدون يبدو أنهم يهابونه : فضلاً عن ذلك ، كانت قامته تقريباً قامة راشد ، وصوتـه صوت راشد ، ومن دون أي شيء من ارتباك الأطفال السريعي الإنسياق . يتحرك ويتكلم بيسر في غير موضعه تقريباً . كان بوسعه أن يصبح فظاً لكنه أيضاً يوضح فكرته بلباقة ، وبثراء ودقة معجم مدهشين بالنسبة لعمره . كان ينال علامات جيدة جداً أو سيئة جداً دون أن يبدو مهتماً بذلك . كتب على البطاقة التي تملأ في بداية العام : « الأب : متوفى » فعلم الجميع أنه يعيش وحيداً مع والدته . وظهيرة أيام السبت فقط كانت تأتي لبحث عنه في السيارة رياضية صغيرة حمراء . لم تكـن تنزل منها ، لكنهم رغم ذلك يجدون الوقت كي يروا أنها لم تكن تشبه أمهات التلاميذ الآخرين ، بجمالها المثير والمبهرج وخديها الغائرين ، وشعرها الأصهب الذي يبدو متشابكاً على نحو مبهم . كان هودكان ما عدا أيام السبت يذهب إلى المدرسة ويعود منها وحيداً في الترامواي . كان يسكن بعيداً فيتساءل التلاميذ لماذا لا يرتاد مدرسة أقرب إلى منزله ، لكن سؤالاً من هذا النوع الذي يسهل طرحه على اي شخص آخر يصبح مستحيلا أمام هودكان . وهم يرونه يبتعد نحو

المحطة ، وحقيبته على كتفه ـ كان الوحيد الذي لا يحمل محفظة كتب على ظهره ـ يحاولون عبثاً ، وكل واحد في سره لأن أحداً لا يتجرأ على الكلام عنه في غيابه ، أن يتخيلوا مسيره ، والحي الذي يقطن فيه ، هو ووالدته ، وشقتهما ، وحجرته. والتصور القائل إنه يوجد في جهة ما من المدينة مكان هو حجرة هودكان ، ينطوي على شيء ما غير متوقع وجذاب بشكل غامض في آن معاً . لم يدخلها أحد قط وهو نفسه لم يذهب إلى منازل الآخرين . كان نيكولا يشاركه هذه الميزة ، إلا انها في حالته أكثر سرية ولم يتبينها أحد على ما يأمل . لم يفكر أحد في دعوته أو ينتظر أن يدعى إلى منزله . كان منزوياً وخائفاً مثلما كان هودكان جريئاً ومتسلطاً وكان يراوده منذ بداية العام خوف فظيع من أن يلاحظه هودكان، ويسأله عن أمر ما ، وقد حلم مراراً بكوابيس اختاره فيها كضحية . لذلك قلق كثيراً عندما وضع هودكان، كامبراطور روماني استخفته في المدرج نوبة وداعة، نهاية لعقاب المنامة. إذا أخذه تحت جناحه فإن بوسعه أيضاً التخلي عنه بعد ذلك ، أو تسليمه إلى آخرين قد يحرضهم ضده . كان كثيرون يسعون إلى حظوة هودكان لكن الجميع يعلمون أنها خطرة ،كان نيكولا قد نجح حتى اليوم في عدم لفت انتباهه. انتهى هذا الآن ، فقد لفت انتباه الجميع بسبب خطأ والده واكتشف أن حدسه كان صائباً : ستغدو رحلة التزلج تجربة مرعبة .

- ٤ -

كان معظم التلاميذ يتغدون في المطعم عادة ، أما نيكـولا فلا . كانت والدته تأتي للبحث عنه ، مثلما تبحث عن أخيه الصغير أيضاً في مدرسة الحضانة ، ويتناولون جميعاً الوجبة في المنزل . كان والدهما يقول بأنهمـا محظوظان كثيراً وأن رفاقهما يستحقون الشـفقة لترددهم على المطعـم ، حيث يأكلون بشكل سيء وتنشب فيه غالباً مشاجرات . كـان نيكولا يفكر كوالده ، ولو سئل عن ذلك ، لأظهر سعادتـه لتجنبه الطعام السيء والمشاجرات . مع ذلك ، كان يدرك أن الروابط الأوثق بين رفاقه تتوطد على الأخص بين الساعة الثانية عشرة ظهراً والثانية في المطعم والباحة التي يخلونهـا بعد الوجبة . أثناء غيابه ، تقاذفوا قطع الجبنة فعاقبهـم المشرفون ، وعقدوا تحالفات وفي كل مرة، عندما كانت والدته ترده ، كان يبدو كأنه وافد جديد ويترتب عليه أن يستعيد العلاقات المعقودة في الصباح . لم يكن أحد يحتفظ في نفسه بذكراه ؛ فقد حدثت أمور كثيرة خلال ساعتي المطعم .

كان يعلم أن ما سيحدث في الشاليه شـبيه بالمطعم ، لكن خلال أسبوعين ، بلا انقطاع ودون إمكانية للعودة الى منزله فيما لو انكشف عسر ذلك . كان يخشى هذا ويخشاه والداه أيضـاً ، حتى انهما سألا الطبيب إن كان يوافق على منح تقرير طبي لكي لا يذهب نيكولا إليها . لكن الطبيب رفض مؤكداً أن ذلك سيجعله أفضل بكثير .

بالإضافـة إلى المعلمة وسائق الحافلة المسؤول أيضـاً عن المطبخ ، كان يوجد في الشاليه باتريك وماري آنج اللذين كانا يشكلان الفرق المكلفة بفرش المائدة عندما انضم نيكولا الى المجموعة: البعض يهتم بالأغطية وآخرون بالصحون إلخ. باتريك هو الذي كلم ضاحكاً والد نيكولا عـن التزلج علـى العشب . إنه طويل، عريض المنكبين، له وجه بارز التقاطيع لونه برونزي ، وعيناه زرقاوان كثيراً ، وشعره طويل يشبه ذيل الحصان . اما ماري آنج ، مربوعـة قليلاً ، تبدي وهي تبتسم سناً مكسوراً في الأمام . كان كلاهما يرتدي ثياباً خضراء وخبازية، ويضعان في المعصم اساور صغيرة برازيلية مصنوعة من خيوط مجدولة، متعددة الألوان ، يعقدها المرء طلباً لأمنية ويترتب عليه الاحتفاظ بها حتى تنفك من تلقاء نفسها : عندئذ تتحقق الأمنية بحسب المبـدأ . كان لدى باتريك ذخيرة كبيرة من هذه الأساور التي يوزعها كأوسمة على أولئك الذين يُسر منهم . بعد وصول نيكولا مباشرة ،

اعطاه إحداها ، فأغاظ هذا عدة صبية كانوا يأملون الحصول عليها ! لم يفعــل نيكولا شــيئاً ليستحقها ! ضــحك باتريك وبدل ان يقول بأنه لا بد من مواساة المسكين نيكولا لأنه ليس لديه أمتعة ، روى انه عندما كان هو واخته صغيرين ، كان والدهما يعاقب دوماً أحدهما حين يرتكب الآخــر حماقة ، وبالعكس ، ليعلمها مبكراً انه يوجد ظلم في الحياة . شكره نيكولا بصمت لأنه لم يضعه في موقف التباكي المفضل، وفكر في الأمنية التي سيصوغها وهو يقوم بجولــة على الطاولات كي يوزع ملاعق الحساء التي سلمها باتريك لــه . خطر لــه أولاً أن يطلب عدم التبول في السرير طيلة رحلة التزلج ، ثم تبين ان بمقدوره ، من النقطة التي وصل إليها ، أن يطلب أن يسير كل شيء على ما يرام خلال رحلة التزلج. ولماذا لا تكون بأن تسير حياته كلها على ما يرام؟ لماذا لا يصوغ امنية بحيث تكون كل أمانيه مستجابة دوماً ؟ كانت فائدة امنية شاملة ما أمكن ، تضم كل الأماني الخاصة ، تبدو للوهلة الأولــى بديهة ، إلى درجة انه اشتبه بخدعة ، كما في حكاية الأماني الثلاث التي يعرفها بصيغتها الطفولية اللطيفة ، عــن فلاح يتحول أنفه إلى نقانق ، لكنه يعرفها ايضاً من ترجمة مفزعة جــداً .

في المنزل ، كانت تمتــد فوق ســرير والديــه رفوف محملة بالألعاب الفولكلورية والكتب . كان معظمها يتنــاول

تعديد المهن او المداواة بالأعشاب ، لكن اثنين منهما يهمان نيكولا . الأول ، مجلد اخضر سميك ، هو القاموس الطبي الذي لم يكن يتجرا على جلبه إلى غرفته خشية أن يلاحظوا فقدانه ، وكان يضطر إذن لقراءته خلال فترات وجيزة وقلبه يخفق ، مسترقاً النظر إلى الباب المنفرج . الآخر يدعى حكايا مرعبة . كان يعرض امراة من الخلف تتمرى في مرآة ، وفي هذه المرآة تشاهد مومياء متفضنة . إنه كتاب جيد ، اسهل استعمالاً من القاموس .أنزله نيكولا وخبأه في غرفته خلف بعض الكتب التي كان يقتنيها ، دون أن يتكلم عن ذلك ، متنبئاً أنهم سينتزعونه من يديه مدعين أنه لا يناسب عمره . عندما كان يستغرق فيه ، وهو ممدد على بطنه في سريره ، يظل متأهباً ليستخدم كغطاء في حالة الخطر كتاب حكايا وأساطير مصر القديمة الذي قرا فيه عشر مرات قصة إيزيس وأوزيريس . كانت واحدة من « القصص المرعبة » تروي كيف يكتشف زوجان عجوزان ميزات تعويذة ، عبارة عن قائمة قرد مقطوعة، مائلة للسواد ومجففة تماماً ، قادرة على الاستجابة لثلاث أمنيات سيصوغها مالكها . يطلب الرجل ، دون تفكير ودون أن يصدّق ذلك ، بعض المال الذي يحتاجه لإصلاح سقف منزله . تلومه زوجته في الحال على حماقته: كان عليه أن يطلب أكثر من ذلك بكثير ؛ أضاع الأمنية ! طرق الباب بعد بضع ساعات . إنه مستخدم المصنع الذي يعمل فيه ابنهما .

كان مرتبكاً جداً ، ولديه خبر مرعب يبلغه لهما . حادث ، لقد وقع ابنهما بين مسننات آلة وتمزق . إنه ميت . يطلب منهما مدير المصنع أن يقبلا مبلغاً مـن المال لأجـل المأتم : بالضبط المبلغ الذي طلبه الأب ! تنوح الأم من الألم وتصوغ بدورها أمنية : أن يعود ابنهما إليهما ! فإذا بقطع من جسـده الممزق تأتي زاحفة امام الباب مع حلول الليل، طرود صغيرة مدماة من اللحم تتحرك علـى درج المدخـل ، وتحاول يـد مقطوعة دخول المنزل الذي يتمترس فيه ابـواه المتجمدان من الذعر . لم يبق لهما بعد سوى أمنية : ان يختفي هـذا الشيء غير المسمى ! أن يموت نهائياً !

ـ ٥ ـ

كان ينام ستة في كل عنبر ويبقى مكان فارغ في عنبر هودكان الذي أعلن ، دون طلب رأي أحد : ان نيكولا سيشغله . وافقت المعلمة : كانت تستحسن ، وهي حذرة تماماً من تقلباته المفاجئة ، أن يساعد على هذا النحو اكبر تلميذ في الصف اصغر تلميذ فيه ، هذا الوجل والمغمور جداً ، نيكولا ، الذي يثير فيها بعض الشفقة . كانت العنابر مجهزة بأسرة منضدة . تسلق نيكولا السلم بعد أن امره هودكان بالنوم فوقه في الأعلى ، وارتدى المنامة المستعارة وهو يتلوى ويشمر أكمامها وبنطالها . كانت السترة الرياضية تبلغ ركبتيه والقامة تموج . اضطر للذهاب الى المغاسل ممسكاً بنطاله بيديه . لم يكن لديه بالإضافة لذلك خف ولا منشفة ولا قفاز مغسلة ولا فرشاة أسنان ، وهي اللوازم التي ليس بمقدور أحد إعارتها له لأن كل واحد يقتني منها نسخة وحيدة . لحسن الحظ لم يفكر احد في ذلك ، وتوصل إلى الاندساس في بلبلة المغسلة الليلية دون أن يلفت الأنظار إليه ، ليعود إلى رقاده بين الأوائل . جاء

باتريك ، الذي كان مكلفاً بعنبره ، ليشعث شعره ويقول له بألا يقلق : سيسير كل شيء على خير ما يرام . وإذا واجه اية صعوبة ، فليأت ليتكلم عنها إلى باتريك شخصياً ، أهذا وعد ؟ وعد نيكولا المشتت بين العزاء الحقيقي الذي يمنحه له هذا التأكيد والاحساس المضني بأن الجميع يترقبون امراً لن يسير على ما يرام بالنسبة له .

عندما آوى الجميع إلى الفراش ، اطفأ باتريك النور ، قال عمتم مساءً واغلق الباب . الفوا انفسهم في العتمة . كان نيكولا يظن ان ضجة ستبدأ على الفور ، ومعركة وسادات سيصعب عليه ان يحدد فريقه فيها ، لكن لا . أدرك أن كل واحد ينتظر لكي يتكلم ان يأذن له هودكان بذلك . وهذا ما جعل الصمت يمتد لفترة طويلة . اخذت العيون تعتاد على الظلام . اصبحت الأنفاس منتظمة أكثر ، لكنهم كانوا مقدمين رغم ذلك على مفاجاة .

« قال هودكان اخيراً كانهما وحيدان في العنبر وكأن الآخرين غير موجودين : نيكولا

ـ همس نيكولا بصدى : نعم

ـ ماذا يعمل والدك ؟ »

رد نيكولا بأنه وكيل . كانت تكفيه فخراً هذه المهنة التي تبدو رائعة ، وحتى غامضة قليلاً .

« سأل هودكان : يسافر كثيراً إذن ؟

ـ قال نيكولا : أجل ، وكرر عبارة سمعها عن لسان امه : يقضي الوقت كله على الطرق » .

كاد ان يتشجع على الكلام عن الفوائد التي يقدمها ذلك بالنسبة للهدايا في محطات الوقود ، لكن الوقت لم يسعفه : كان هودكان يرغب بمعرفة ما يبيعه والده ، كنوع من الحذاقة . وسط دهشة نيكولا الكبيرة ، لم يكن يبدو انه يسأل على سبيل السخرية منه ، بل لأنه يشعر بفضول حقيقي حيال مهنة والده . قال نيكولا إنه وكيل معدات جراحية .

« ملاقط ؟ مشارط ؟

ـ اجل ، وايضاً اعضاء تبديلية .

ـ سيقان خشبية ؟ » استعلم هودكان مبتهجاً ، وشعر نيكولا ، كعلامة إنذار في قرارة نفسه ، بخطر السخرية يقترب .

« قال : لا ، من البلاستيك

ـ يتنزه مصطحباً سيقاناً بلاستيكية في صندوق سيارته ؟

ـ اجل ، وايضاً اذرع وأيدي ...

ـ ورؤوس ؟ قهقــه لوكا فجـاة ، وهــو صبي أصهب يضع نظارتين ، وكان يمكن ان يحسبانه نائماً كالآخرين .

ـ قال نيكولا : لا ، ليس رؤوس ! إنه وكيل في المواد الجراحية ، وليس في التهريج والهزل ! »

رحبت ضحكة صغيرة متســامحة مـن هودكان بهــذا التوبيخ ، وشعر نيكولا فجاة بالزهو والارتياح الكبير : بعد حماية هودكان له ، صار بوسعه أن يقول هو أيضاً أشــياء طريفة وأن يثير الضحك .

« سأل هودكان ايضــاً : وهل أظهــر لك تلك الأعضاء التبديلية

ـ اكد نيكولا الذي كان يمنحه هذا النجاح الأول الثقة : بالتأكيد .

ـ هل سبق وجربت إحداها ؟

ـ لا ، هذا ليس ممكناً . مثل هذه توضع بدل الساق أو الذراع . فإذا كانت ساقك أو ذراعك سليمة ، فلا يمكن تعليقها في اي مكان .

ـ قال هودكان بصوت هادىء : لو كنت والدك ، لاستخدمتك لتقديم البراهين . لقطعتُ ذراعيك وساقيك وركبتُ الأعضاء التبدلية ولعرضتك هكذا على زبائني . ولكان هذا إعلاناً جيداً » .

انفجر شاغلوا السرير المجاور بالضحك ، وقال لوكا شيئاً بشأن النقيب كروشيه ، في بيتربان ، فخاف نيكولا فجأة ، وكأن هودكان يبدي أخيراً وجهه الحقيقي ، الوجه الخطر جداً الذي خشيه . أخذ العملاء الخسيسون يضحكون الآن بينما يبحث المتسلط في مخيلته بلا مبالاة عن أظرف العقوبات . ولكن هودكان ، وقد أحس بما تحمله عبارته من تهديد ، صححها قائلاً بهذه الرقة المدهشة التي يستطيعها « سأجعلك تمشي يا نيكولا . لا تقلق » ثم أراد أن يعلم إن كان بوسعه أن يشاهد غداً ، عندما يأتي والد نيكولا ليعيد الحقيبة ، تلك الأعضاء التبديلية الشهيرة ومحافظ المعدات الجراحية . أحرجت الفكرة نيكولا .

« إنها ليست ألعاب ، كما تعلم . يعرضها فقط على زبائنه ...

ـ أصر هودكان : ألن يعرضها إذا طلبنا منه ؟ وإذا طلبت منه أنت نفسك ؟

ـ أجابت نيكولا بصوت خفيض : لا أظن .

ـ وإذا قلتُ له بأنه مقابل ذلك لن يضربك أحد طيلة رحلة التزلج ؟ »

لم يقل نيكولا شيئاً ، كان الخوف يراوده من جديد .

« استنتج هودكان : حسن ، في هذه الحال سأتدبر أمري بطريقة أخرى » مرت لحظة ، ثم قال وكأنه لا يخاطب شخصاً معيناً : « إلى النوم الآن » . سمعوا اهتزاز جسده الكبير في السرير ، حتى وجد الوضعية المريحة ، وأدرك كل واحد أن المسألة لم تعد لإبداء الرأي .

- ٦ -

لم تعد تسمع ضجة ، لكن نيكولا لا يعلم إن نام الآخرون . ربما كانوا يتظاهرون خوفاً من إثارة غضب هودكان ، وربما هودكان يتظاهر أيضاً ، لكي يفاجىء من يتجرأ على مخالفة أوامره . لم يكن نيكولا يرغب بالنوم . كان يخاف أن يتبول في السرير ويبلل منامة هودكان . أو الأسوأ أيضاً ، أن ينضح الفراش ، لعدم وجود الحفاض ويبلل هودكان تحته . سيبدأ سائل كريه الرائحة بالرشحان على وجه النمر ، سيشمئز ويستيقظ ، وعندئذ سيكون الأمر فظيعاً . الحل الوحيد لتفادي هذه الكارثة هو عدم النوم . كانت الساعة التاسعةوعشرين دقيقة حسب العقارب الفوسفورية لساعته ، وهم يستيقظون الساعة السابعة والنصف، وهو ما يقتضي الصمود ليلة طويلة . لكنها ليست المرة الأولى ، كان متمرناً .

كان والد نيكولا قد اصطحب ولديه إلى حديقة الملاهي العام الفائت . لم يكن الطفلان يهتمان بالأمور نفسها بسبب

فرق العمر . استهوى نيكولا على وجـه الخصوص المنـزل المسكون بالأرواح والقطار الشبحي والدولاب الكبـير ، أمـا أخوه فاستهوته الخيول الخشبية للصغار . كان والدهمـا يحاول أن يقترح حلول التسوية، ويثور حين يرفضانها . مروا بعد برهة أمام دولاب مموه بسلسلة ترسم دائرة في الأعلى، بأقصى سرعة . كان العابرون ، المتشبثون بسواعد إغلاق الحجرات الصغيرة ، يظهرون ورؤوسهم نحو الأسفل ، مقذوفين نحو السماء بالقوة الطاردة المركزية . كان هـذا يجـري بسرعة كبيرة ، تتزايد باطراد، فيسمعونهم يصرخون وينزلون شاحبين، ارجلهم مترنحة، لكنهم مفتونون بالتجربة . قال صبي في مثل سن نيكولا إن ذلك رائـع ، ووجـه والده الذي دار معـه إلى والد نيكولا ابتسامة صغيرة مفهومة ، تعني أنه فيما يتعلق بالروعة ، فإنها جديرة بالاختبار . كان نيكولا يود المحاولة ، لكن والده أشار إلى إعلان على الكوة التي تحجز منها الأمكنة يقول إن الأطفال دون سن الثانية عشرة يجب أن يرافقهم ذووهم . « قال نيكولا حسن، رافقني . أرجوك، رافقني! » رفض والده الذي لم يبد بأي شكل متحمساً للاهتزاز ورأسه إلى أعلى ، بحجة أنه ليس بوسعه اصطحاب أخيه الصغير ، الذي قـد يخاف ، ولا تركه وحيداً دون رقابـة . عندئذ ، اقترح بتهذيب والد الصبي الذي قـام للتو بدورة أن يرعى الأخ الصغير خلال الدقائق الثلاث التي تستغرقها التسلية . كان يشبه قليلاً المعلم باتريك مـع زيادة في السن : يرتدي

قميصاً أزرق وليس معطفاً قطنياً سميكاً مثل والد نيكولا ، ووجهه ضاحك . نظر إليه نيكولا بامتنان ، ثم نظر إلى والده برجاء . لكن والده قال بجفاء لوالد الصبي إنه لا داعي لذلك . عندما فتح نيكولا فمه في محاولة لثنيه عن عزمه ، ألقى عليه نظرة متوعدة ووضع يده كالملزمة على قذاله لكي يجعله يتقدم . ابتعدوا عن السلسلة بصمت ، دون أن يتجرأ نيكولا على الاحتجاج طالما ما يزالون على مرأى الصبي ووالده. كان يتخيل نظراتهما المندهشة وراءه ! لماذا هذا الانصراف المباغت رداً على عرض ودي ؟ عندما اعتبر والد نيكولا نفسه بعيداً بما فيه الكفاية ، توقف وقال بقسوة إنه عندما قال لا فهذا يعني لا وأن إثارة فضيحة أمام الناس لم تكن تجدي نفعاً .

« ثار نيكولا وهو على وشك الانتحاب : لكن لماذا ؟ ماذا يمكن أن يضيرك هذا ؟

ـ سأل والده مقطب الحاجبين : تريدني أن أقول لك لماذا ؟ تريدني أن أقول لك ذلك ؟ حسن ، إنك كبير بما فيه الكفاية لكي أشرحه لك ، فقط ، لا ينبغي أن تتكلم عنه ، لا إلى رفاقك ولا إلى أحد . هذا الأمر تبلغته من مدير مستوصف ، الأطباء جميعاً مطلعون عليه لكنهم لا يريدون أن ينتشر حتى لا يرتعب الناس . منذ زمن ليس ببعيد ، في حديقة ملاه كهذه،اختفى صبي صغير.غفل عنه والداه لبضع

لحظات وها هي النتيجة . حدث كل شيء بسرعة فائقة : كما تعلم من اليسير جداً الاختفاء . بحثا عنه طيلة النهار والمساء وانتهيا إلى العثور عليه ، فاقد الوعي خلف سياج . حملاه إلى المشفى ، وتبينا ان في ظهره ضمادة كبيرة ، وعليها دم نازف، ففهم الأطباء عندئذ ، كانوا يعلمون مسبقاً ما سيشاهدونه في جهاز الأشعة : لقد أجريت عملية جراحية للصبي الصغير ، وانتزعت كليته . يوجد أناس يفعلون هذا ، فتصور . اناس اشرار . يدعى هذا تجارة الأعضاء . لديهم شاحنات صغيرة مجهزة بكل المعدات لاجراء العملية ، يطوفون حول حدائق الملاهي ، او قرب مخرج المدارس ويخطفون الأطفال . قال لي مدير المستوصف إنه يفضل عدم إفشاء ذلك ، مع أن هذا يحدث بصورة متزايدة غالباً فمستوصفه،وحده،استقبل صبياً قطعوا يده وآخر انتزعوا عينيه . هل تفهم الآن لماذا لم ارغب بتسليم أخيك الصغير لشخص مجهول ؟ »

حلم نيكولا بعد هذه القصة مراراً بكابوس يجري في حديقة الملاهي . لم يكن يتذكر تقلباته في الصباح ، لكنه تنبأ أن انحداره كان يقوده إلى رعب غير مسمى ، كان مهدداً بألا يستيقظ منه . كان الهيكل المعدني للسلسلة يرتفع فوق معسكر الحديقة والحلم يجذبه نحوه . كان الرعب كامناً هناك . ينتظره كي يلتهمه . أدرك في المرة الثانية أنه اقترب

منه وأن المرة الثالثة ستكون بلا ريب مقتله . سيعثرون عليه ميتاً في سريره ، ولن يعرف أحد ما حصل له . قرر عندئذ البقاء مستيقظاً . وبالتأكد لم ينجح في ذلك بحق ، فقد زارت رقاده القلق كوابيس أخرى ، كان يخشى أن يختبىء خلفها كابوس الحديقة والسلسلة . اكتشف في ذلك الفصل أنه يخاف النوم .

- ٧ -

يقال في الأسرة ، مع ذلك ، بأنه ابن ابيه ، الذي ينـــام بشكل سيء ، ولكن طويلاً ، وبنوع من النهم . عندما كان يبقى عدة أيام متتالية في المنزل ، لدى العودة من جولة ، كان يمضي كل وقته تقريباً في السرير . كان نيكولا بعد عودته من المدرسة ينجز وظائفه أو يلعب مع أخيه الصغير متعهداً عدم إحـداث ضجة . كانا يمشيان على رؤوس الأصابع في الممر ، ووالدتهما تضع السبابة على شفتيها دوماً . كـان والدهما يخرج عند الغسق من حجرته مرتدياً المنامة ، غير حليق ، وجهه متجهم ومتورم من النعاس ، وجيوبه منتفخة بالمناديل المكورة ورزم الأدوية المتشققة . كان يبدو مندهشاً وعلى نحو مزعج ، لاستيقاظه هناك ومشيه بين هذه الجدران القريبة جداً ، فاتحاً الباب الأول المفضي لاكتشـاف حجرة الأطفال حيث يكف صبيان صغيران ، يحبوان بقوائم أربعة على الموكيت ، عن القراءة أو اللعب لينظرا إليه بقلق . كان يكشر عن ابتسامة ، ويتمتم بنهايات عبارات تدور حول التعب ، والمواعيد المرتبة بشكل سيء،والأدوية التي تصيبكم

بالوهم . كان يجلس أحياناً على حافة سرير نيكولا وبقي هكذا لبرهة ، عيناه شاردتان،ويمرر يده على لحيته الخشنة وفي شعره المشعث الذي يحتفظ بتجعيدات الوسادة . كان يتنهد . يطرح المواضيع الغريبة ، سائلاً نيكولا على سبيل المثال في أي صف أصبح . كان نيكولا يجيبه بانقياد ، فيهز راسه ويقول بأن الأمر صار جدياً وان عليه العمل بمثابرة لكي لا يعيد صفه . كان يبدو انه نسي أن نيكولا سبق وأعاد صفه مرة ، في العام الذي نقلوا فيه مسكنهم . طلب ذات يوم من نيكولا الاقتراب والجلوس بقربه على السرير . طوق قذاله بيده وشده قليلاً .كان هذا لإظهار محبته، لكنه بسبب الألم ، فلوى نيكولا عنقه بلطف لكي يخلص نفسه . قال والده بصوت خفيض واصم : « أحبك يا نيكولا » فتأثر نيكولا من ذلك ليس لأنه يرتاب بالأمر بل لأنه بدا له تصرفاً غريباً أن يقول ذلك . كأن هذه هي المرة الأخيرة قبل فراق طويل ، وربما نهائي ، كأن والده أراده أن يتذكر هذا طيلة حياته . مع ذلك ، أصبحت نظرته مضطربة ويداه ترتعشان. كان قد نهض وهو يزفر ، ومنامته الخمرية تنغفر، مدعوكة تماماً ، وخرج كيفما اتفق ، بهيئة من لا يعرف أيّ باب يفتح لكي يهتدي إلى الممر ، ويعود إلى حجرته ، وينام من جديد .

— ٨ —

صار نيكولا يفكر الآن بخطة هودكان المعلنة في ان يرى بأم عينيه العينات المصفوفة في صندوق السيارة ، وهو ما كان له الفضل على أيـة حـال بمنعه عن النوم . كيف سيتصرف ؟ لعله سيستعد للبقاء في الشاليه ما دام الآخرون سينزلون إلى القرية من أجـل درس الـزلج . سيترصد وصول السيارة وهو مختبىء خلف شجرة . سينزل والد نيكولا ويفتح الصندوق لكي يأخـذ الحقيبة ويعيدهـا إلى الشاليه . وفور أن يدير ظهره ، سيسرع هودكان ، ويفتح الصندوق بدوره ، ثم العلب البلاستيكية الصغيرة السوداء المحتوية على الأعضاء التبديلية والمعدات الجراحية . كانت هذه ولا شك خطته ، ولكنه لم يكن يعلم أن والد نيكولا يقفل الصندوق بالمفتاح دوماً بعد أن يأخذ منه شيئاً ما ، حتى لو كان ينوي فتحه بعد بضع دقائق . مع ذلك ، كان الجريء هودكان ، كما استطاع تخيله ، قـد تعقب والد نيكولا إلى الشاليه وفتش جيوبه وسرق علاقة مفاتيحه حين كان يتكلم مع المعلمة . كان نيكولا يرى هودكان منكباً فوق الصندوق

المفتوح ، يخلع العلب الصغيرة ، ويجرب بطرف إبهامه حد مشرط ، ويعبث بمفصلات ساق بلاستيكية ، وقد افتتن إلى حد انه نسي الخطر . يخرج والد نيكولا للتو من الشاليه ويتجه نحو السيارة . لأول وهلة ، سيفاجأ به . ستهوي يده على كتف هودكان ، وبعد ذلك ، ماذا سيجري ؟ لم يكن نيكولا يعلم شيئاً عن ذلك . في الحقيقة ، لم يتوعد والده ابداً بالعقاب المخيف اي شخص قد يلمس معداته . لكنه كان متأكداً انه حتى بالنسبة لهودكان ستكون حالة خطرة جداً . كانت عبارة « قضى ربع ساعة شاقة » تشغل تفكيره . اجل ؛ لو قبض على هودكان وهو يفتش صندوق سيارة والد نيكولا ، لقضى ربع ساعه شاقة .

كان نيكولا يتكدر من اهتمام هودكان بوالده . ويفكر في كسب ثقته حتى لو لم يأخذه تحت حمايته بغية التقرب من والده . تذكر أن هودكان لم يعد لديه أب . وحين كان هذا الأب حياً ، ماذا كان يعمل ؟ لم تراوده هذا المساء فكرة طرح السؤال ، وعلى اية حال ما كان ليتجرأ . لم يكن بوسعه منع نفسه عن التفكير بأن والد هودكان مات ميتة عنيفة ، في ظروف غامضة ومأساوية ، وأن حياته قادته منطقياً إلى ميتة كهذه . كان يتخيله خارجاً عن القانون وخطيراً جداً كابنه ، ولعل هودكان لم يصبح خطيراً جداً إلا لمواجهة المخاطر التي يتعرض لها لأنه ابن هذا الأب .

ود لو يسأل هودكان عن ذلك الآن . كان هذا يصبح ممكنا وجهاً لوجه في الليل .

إنها فكرة مثيرة ، هـذه المحادثة الليلية مع هودكان ، وأمضى نيكولا لحظة مديدة في تصور ظروفهـا الممكنة . سيخرجان سوية من العنبر دون إيقاظ أحد . سيتكلمان بصوت خفيض في الممر أو في المغاسل . راح يتخيل همساتهما. والقرب مـن جسـد هودكان الضخم الدافيء ، وراق لـه التفكير أنه يوجد تحت هذه السلطة المستبدة التي يظهرها بعض الحزن وضعفاً سيصارحه هودكان بهما . كان يسمعه يقول له كما يقول لصديقه الوحيد . للشخص الوحيد الذي يمكنه الوثوق فيه ، بأنه تعيس وأن والـده مات بطريقة فظيعة ، ممزقاً وملقى في بئر ، وأن أمه تحيا خائفة من أن تشهد بين ليلة وأخرى ظهور شركائه ، متلهفين للثأر منها ومن ابنها . أما هودكان فيعلن لنيكولا جازماً وساخراً إنه يخاف ، وأنه هو أيضاً ، كان صبياً صغيراً تائهاً . كانت الدموع تنهمر على خديه ، ويضع رأسه المزهو على ركبتي نيكولا ، فيمسد نيكولا شعره ، ويقول له أشياء لطيفة لكي يواسيه ، ويخفف هذا الحزن البليغ ودوماً أنت (المخاطبة برفع الكلفة) التي تنفجر فجأة أمامه ، لأجله فقط ، لأنه وحده نيكولا ، جدير بها . كان هودكان يقول بين شهقتين أن الأعداء الذين قتلوا والده والذين تهابهم والدته كثيراً ،

يوشكون على المجيء إلى الشاليه لاقتياده . سيأخذونه كرهينة أو ببساطة سيقتلونه ، ويتركون جثته في حراج مغطاة بالثلج . صار نيكولا يدرك أن عليه حماية هودكان ، وإيجاد مخبأ يكون فيه بمأمن عندما سيحاصر هؤلاء الرجال الأشرار ، الذين يرتدون معاطف داكنة ولامعة ، الشاليه ويدخلونها بصمت ، كل واحد من باب حتى لا يستطيع أحد الفرار . سيشهرون سكاكينهم ويطعنون ببرود ومنهجية ، مصممين على ألا يوجد أي شاهد . ستزدحم عند قوائم الأسرة الطابقية أجساد الأطفال نصف العارية المباغتة في رقادها . ستراق أمواج من الدماء على الأرض . لكن نيكولا وهودكان مختبئان في تجويف الجدار ، خلف السرير . إنه مكان ضيق ومعتم ، وجحر فئران حقيقي . سيتحاضنان فيه ، وعيونهما البراقة في الظلام جاحظة من الذعر . سيسمعان سوية ، مع أنفاسهما ، الضجيج الفظيع للمجزرة ، وصرخات الهلع ، وحشرجات الاحتضار ، والاصطدامات الصماء للأجساد الساقطة ، والزجاج المحطم الذي تزيد شظاياه أيضاً من تهشيم اللحم المقطع ، وضحكات خفيفة مقتضبة وجافة للجلادين . سيتدحرج تحت السرير رأس لوكا المقطوع ، وهو الصغير الأصهب ذو النظارات ، حتى مخبئهما ويتوقف عند أقدامهما ،ويحدق فيهما بعينيه الجاحدتين . وبعد ذلك لن يعود هناك ضجيج . ستمر ساعات . سيغادر القتلة خائبين ، مشتتين بين متعة المذبحة

والغيظ من إخطائهم فريستهم . لن يوجد في الشالية سوى الأموات ، جبال من الأطفال الموتى . لكنهما لن يخرجا . سيظلان طيلة الليل محشورين في عزلتهما ، متحصنين وسط ركام الجثث ،وهما يشعران على خدودهم بسيلان سائل دافىء قد يكون دم جرح أو دموع الآخر . سيظلان هناك مرتعشين . لن يكون لليل نهاية . ولعلهما لن يخرجا أبدأ .

- ٩ -

في اليوم التالي ، بعد الإفطار ، لم يكن والد نيكولا قد وصل بعد . كانت المعلمة تنظر إلى ساعتها : لن نتأخر رغم ذلك ونفوت درس التزلج في سبيل انتظاره . وهو يشعر بنظرتها تلومه هذه المرة دون تسامح ، قال نيكولا بصوت هامس إنه قد يكون من الأفضل أن يبقى هو في الشاليه . كان يأمل أن يقترح هودكان البقاء أيضاً . اعترضت المعلمة : « لن نتركك لوحدك » . علق باتريك أنه لن يتعرض لخطر عظيم ، لكن المعلمة رفضت لأن المسألة مسألة مبدأ . دعت نيكولا أثنـــاء الانتظار أن يرافقها الى الأعلى : كانت تريـــد مهاتفة والدته حتى تطلعها على الوضع وتعلم فيما إذا حصلت على أخبار عن زوجها . توجها في الطابق الأول نحو المكتب الصغير المغطى بالخشب حيث يوجد جهاز الهاتف . حظيا من النافذة بإطلالة جميلة على الوادي . بعد أن طلبت المعلمة الرقم ، انتظرت لبرهة وسألت نيكولا بهيئة مغتاظة عمـــا إذا كانت والدته تغادر باكراً جداً في الصباح . رد نيكولا بهيئة

نادمة بالنفي ، دون تخصيص .كان مسروراً في الواقع لأن والدته لم تجب . فهذا الاتصال يكدره . كانوا يتلقون في المنزل القليل من الاتصالات ، وفي المرات النادرة التي يرن الهاتف فيها ، لا سيما في غياب والده ، كانت والدته تقترب منه بقلق واضح . حين يكون نيكولا حاضراً ، تغلق الباب حتى لا يسمع ، كأنها خائفة وتريد ان تعفيه لأطول فترة ممكنة من خبر سيء . تنهدت المعلمة ثم تحسباً من أن تكون قد أخطأت ، اعادت طلب الرقم . اجابت أمه فوراً ، فتساءل نيكولا عما جرى في الاتصال الأول . راح يتخيل والدته في الحالة التي فاجأها فيها عدة مرات : واقفة أمام جهاز الهاتف وهو يرن ، وجهها متشنج ، لا تتجرأ على رفع السماعة . عندما ينقطع الرنين ، تبدو مرتاحة لبرهة ، لكنها تجيب حالاً إذا استأنف الرنين ، وهي تمسك السماعة وجهاز الهاتف كمن سيلقي نفسه في الماء فراراً من النار .

كان نيكولا يتفحص بفضول يشوبه القلق وجه المعلمة بينما تعَرّفُ بنفسها وتشرح سبب اتصالها . لاقت نظرته وهي مستغرقة في الكلام ، وأومأت له أن يمسك السماعة ، فأطاع .

« كانت تشرح بصبر : لا يا سيدتي ، ليس الأمر خطيراً. بل هو مضجر . كما تعلمين ، ليس لديه حقيبة ، وبدون

ملابس احتياطية وأدوات تزلج ، فقط لديه ما يلبسه ، لذلك لا نعلم تماماً ماذا سنفعل له » .

ابتسمت لنيكولا كي تخفف من وطأة هـذه الملاحظة ، وساعية على الأخص إلى إثارة رد فعل أمه .

« قالت الأم : لكن زوجي سيحضر له الحقيبة بالتأكيد .

ـ هذا ما آمله يا سيدتي ، لكن بما أنه لم يصل ، فإن ما كنت أود معرفته ، هو أين يمكن اللحاق به .

ـ عندما يكون في جولة ، لا يمكن اللحاق به .

ـ حقـاً ، ألا تخمنين في أي الفنادق سينزل ؟ وإذا اضطررت لمكالمته على وجه السرعة ؟

ـ قالت والدة نيكولا بجفاء : آسفة . هذه هي الحال .

ـ لكنه يتصل بكِ أحياناً ؟

ـ أحياناً ، أجل .

ـ حسن ، إذا اتصل بك ، فستتفضلين بإبلاغه ... المشكلة ، إذا لم يأت اليوم ، فهذا يعني أنه يوشـك على الابتعاد ... ألا تعرفين مطلقاً خط سيره ؟

ـ لا ، آسفة .

ـ قالت المعلمة : حسن ، حسن ... هل تريدين التكلم إلى نيكولا ؟

ـ اشكرك » .

ناولت المعلمة الجهاز لنيكولا وخرجت إلى الممر حتى لا تضايقه . لم يعرف نيكولا ووالدته بماذا يتحدثان . فيما يخص الحقيبة ، لم يكن يوجد شيء يضيفانه إلى المحادثة مع المعلمة : ليس بمقدورهما سوى انتظار ان يحضرها والده إلى الشاليه . لم يرغب نيكولا أن يتذمر ويقلق والدته أكثر مما ينبغي ، وهي لم ترغب بطرح الأسئلة التي قد تزيد القلق الذي ليس لديها اية وسيلة لمعالجته . لذلك اقتصرت على النصائح بالتعقل والطاعة اللذين كانت ستمليهما عليه في الظروف الطبيعية . راود نيكولا الإحساس المرير بأنها لو شاهدت تمساحاً يبتلعه بين فكيه حتى منتصفه ،لاستمرت تردد عليه ـ تسلى جيداً ، كن عاقلاً ، ولاتنسى أن تتغطى جيداً ـ أما فيما يخص التغطي جيداً ، فلم تستطع أن تقوله وكانت تحاذر دون شك الا تدعوه إلى ارتداء الكنزة الثخينة المنقوشة بالأيائل التي حاكتها له .

وهو ينزل ثانية مع المديرة إلى الصالة الكبيرة التي ترفع فيها موائد الإفطار ، راح نيكولا يفكر في هذا السر . كان يعلم

أن حقيبته في صندوق السيارة ، وقد شاهدها غائصة بين السلاسل وعلب العينات ، أما والده فلم يستطع ملاحظتها، وهو يفتح الصندوق ، ولابد أنه اضطر مساء أمس لفتحه ، وعلى أبعد تقدير ، هذا الصباح وهو يزور زبائنه . إذن ، لماذا لم يتصل ؟ ولماذا لم يصل ؟ كان عليه أن يخمن الحرج الذي يسببه لنيكولا . هل أضاع رقم هاتف الشاليه ؟ أم مفاتيح صندوق السيارة ؟ هل سرقهما أحد منه ؟ هل سرق أحد السيارة منه ؟ أو أيضاً ، هل وقع له حادث ؟ فجأة ، بدا لنيكولا هذا الافتراض الذي لم يفكر فيه ملياً الأكثر معقولية . حتى يهمله والده على هذا النحو ، ينبغي أن يكون غير قادر على المجيء والاتصال . لعل السيارة انزلقت على سطح الجليد ، وصدمت شجرة ، ووالده يحتضر ، وصدره محطم بالمقود . فكرته الأخيرة الواعية والكلمات التي تمتم بها قبل موته والتي لم يفهمها المنقذون ، لابد أن تكون « حقيبة نيكولا ! أعيدوا إلى نيكولا حقيبته ! » .

وهو يتخيل ذلك ، كان نيكولا يحس بالدموع توشك أن تطفر من عينيه ، ويشعر بعذوبتها الفائقة . لم يكن يود بالتأكيد أن يصبح هذا حقيقياً ، لكنه في الوقت نفسه يتمنى في مواجهة الآخرين لو يتلبس دور اليتيم ، بطل المأساة . سيرغبون بمواساته وسيرغب هودكان بمواساته ، لكنه سيكون شديد الحزن . تساءل إن كانت المعلمة قد

قامت بمحاكماته نفسها ، وتحاول أن تخفي قلقها عنه ما دام بقي أمل . بالتأكيد لا . ليس بعد. كان نيكولا يستبق اللحظة التي سيرن فيها الهاتف من جديد . ستصعد المعلمة للرد دون قلق ، وسيلعب الأطفال في الصالة بضوضاء وسيضجون. هو وحده سيترصد منتظراً عودتها . وها هي تعود ، وجهها شاحب ومتوتر . كان الصخب مستمراً لكنها لم تأمر بالصمت . كأنها لا تسمع شيئاً ، ولا تلاحظ شيئاً ، ولم تعد ترى إلا نيكولا الذي تتجه نحوه ، وتمسك يده،وتصطحبه على انفراد إلى المكتب ، تغلق الباب خلفها فتنقطع الضجة في الأسفل . تحتضن وجهه بين يديها برفق ، وتضغط راحتيها على وجنتيه ، ولا يرى سوى شفتيها ترتعشان وتتمتم : « نيكولا ... اسمع ، نيكولا ، يجب أن تكون في غاية الشجاعة...» عندئذ، ينخرط كلاهما بالبكاء ، وهو بين ذراعيها ، وكان هذا عذباً ، عذباً على نحو عجيب ، وود لو تستمر هذه اللحظة طيلة حياته ، وأن لايوجد في حياته بعد إلا هذا ، ولا شيء آخر ، ولا وجه آخر ، ولا كلمات أخرى ، فقط اسمه المردد برفق ، نيكولا ، نيكولا ، ولا شيء آخر .

- ١٠ -

أعدت المعلمة والمشرفان القهوة ثانية ، قبل المغادرة ، لكي يناقشوا التدابير التي ستتخذ بخصوص نيكولا . ظل معهم بعيداً عن الأطفال الآخرين ، وقد استقر نهائياً ، على ما يبدو ، في دور مشكلة تتطلب الحل .

« قال باتريك : اسمعوا ، لن نمضي الأسبوع في هـذه المشكلة ، إذا حدث ونسي والده تماماً حقيبته ، فهذا يعني انه أصبح على مسافة بعيدة من هنا ، عندئذ ، إذا انتظرنا ان يعود ، سيفسد هـذا إقامة الصبي وإقامة الجميع دفعة واحدة . ما أقترحه ، أنا ، هو أن تأخذ من الصندوق التعاوني ما يجهزه بأمتعة في الحد الأدنى ، لكي يتمكن من القيـام بكل شيء مثـل الآخرين . هل يناسبك هـذا أيها الطيب ؟ » أضاف ملتفتاً نحو نيكولا :

كان هذا يناسبه ووافقت المعلمة أيضاً .

خرج باتريك مع نيكولا في الموعد المحدد بعد الغداء ، حين كان من المفروض أن يقرأ الجميع أو يرتاحون . كان

الطقس لطيفاً ، والشمس تتلألأ عبر الأغصان العارية . وعندما لم يشاهد نيكولا أية مركبة على الفسحة الموحلة أمام الشاليه ، ظن أنهما سيذهبان إلى القرية في الحافلة وأنه سيبدو عملاً مضحكاً للسائق أن ينقل راكبين فقط . لكن باتريك تجاوز الحافلة التي كانت تبدو على الموقف تنيناً ساكناً ، ونزل حوالي المائة متر على الطريق الفرعي المفضي إلى الشاليه. كانت قد ركنت سيارة ٤ ل صفراء ناصلة قليلاً لم يلحظها نيكولا في الذهاب . فتح باتريك الباب من جهة السائق وقال : « ها هي العربة ! » . جلس وسحب من عنقه خيطاً جلدياً طويلاً يعلق فيه مفتاح التشغيل . أراد نيكولا الصعود في المقعد الخلفي ، لكن باتريك مال ليفتح الباب الأمامي الآخر .

«قهقه : هي ، هو ، لستَ سائقك الخصوصي !» فتردد نيكولا : كان الركوب في مقعد السيارة الأمامي ما يزال محظوراً عليه نهائياً . « إذن ، هلا أسرعت ؟ » فأطاع . « أضاف باتريك : على أية حال ، هناك فوضى ، في المقعد الخلفي » نظر نيكولا من فوق المقعد ، بخوف ، كأنه خشي أن يقفز على عنقه كلب ضخم مختبىء تحت غطاء اسكوتلندي رث . كانت توجد حقيبة ظهر ، وكرتون قديم ، وعلبة صغيرة تحتوي أشرطة مسجل ، وحبل ملفوف ، وأشياء معدنية لا بد أنها أدوات تسلق .

وقال باتريك وهو يدير مفتاح التشغيل : « ستضع الحزام رغم كل شيء » . تنحنح المحرك . حاول باتريك من جديد ، استطرد : لا جدوى. خشي نيكولا أن يغضب ، لكنه قام فقط بتكشيرة ساخرة وأوضح ملتفتاً نحو نيكولا : « صبراً . إنها هكذا . يجب أن تطلب منها الأشياء بلطف » أعاد التشغيل ، وضغط برفق فائق على دواسة السرعة ، وتمتم وهو يرفع القدم الآخرى : « هيا ... هيا ... أيتها الساذجة ! » لم يستطيع نيكولا أن يكبح همهمة الحماس حين انطلقت السيارة وأخذت تنزل الطريق الصغيرة المتعرجة .

سأل باتريك : « هل تحب الموسيقا ؟ »

أسقط في يد نيكولا . لم يطرح هذا السؤال على نفسه قط . ففي منزله لم يستمع أحد إلى الموسيقا مطلقاً ، وحتى لم يكن يوجد جهاز اسطوانات ، ويعتبر الجميع في المدرسة درس الموسيقا بمثابة سخرة . كان الأستاذ ، السيد ريبوتو يملي نصوصاً موسيقية ، أي أنه يعزف على البيانو العلامات التي يجب عليهم كتابتها على أسطر دفتر خاص بالموسيقا . لم ينجح نيكولا بذلك أبداً . كان يفضل بعض الملخصات التي يمليها السيد ريبوتو عن حياة مشاهير الموسيقيين : على الأقل ، هي كلمات وأحرف يعرف كتابتها . كان السيد ريبوتو رجلاً قصيراً جداً ، ذو رأس ضخم ، وبسبب خوفهم من فورات غضبه العنيفة ، التي وصلت حسب أسطورة

المدرسة إلى حد رمي مقعد في وجه تلميذ ، باتوا يتصورونه مضحكاً قليلاً . صاروا يشعرون أن الأساتذة الآخرين لا ينالون مقارنة به كثيراً من الاحترام ، وأن أحداً لم يكن يناله . كان ابنه ، مكسيم ريبوتو ، وهو قصير وضعيف البنية مثله ، في صف نيكولا . لم يكن هذا الأخير يشعر بالود حيال هذا الكسول المنافق ، المتعرق ، الذي يحلم أن يصبح في المستقبل مفتش شرطة ، لكنه لم يكن يستطيع التفكير به دون شفقة مؤلمة . ذات يوم ، مَدَّ صبي جالس في الصف الأول ساقيه إلى المنصة ولطخ سهواً بنعلي حذائه أسفل بنطال السيد ريبوتو ، الذي اعتراه غضب فظيع . لم يكن يثير خوفاً او احتراماً بل الأصح شفقة متعالية . راح يقول بحنق شديد ونائح ، إنه حسبه المجيء إلى المدرسة لكي تتسخ ملابسه التي قاسى بما يكفي في شرائها ، وأن كل شيء أصبح غالياً وانه يكسب أجراً زهيداً ، وأنه اذا كانت لدى اهل التلميذ الذي لطخ للتو بنطاله موارد لدفع أجر منظف الثياب كل يوم ، فهنيئاً لهم ، أما هو فليس لديه موارد . أخذ صوته يتهدج وهو يقول ذلك ، فتملكهم إحساس بأنه على وشك البكاء ، واعترت نيكولا أيضاً رغبة في البكاء ، بسبب مكسيم ريبوتو الذي لم يكن يتجرأ على النظر في اتجاهه والذي عليه أن يتحمل مشهد والده يهين نفسه أمام رفاقه ويظهر حنقه بهذه الصفاقة المرعبة لانه في هذا الوضع الساخر في الحياة . فوجىء بعد ذلك ، في الاستراحة ، لسماع مكسيم ريبوتو يذكر الحادثة بنبرة مازحة طليقة ، مؤكداً أنه لا ينبغي

القلق حين يطلق والده العنان لغضبه : فهو يهدأ بسرعة .
كان قد توقع بعد هذا المشهد أن يغادر مكسيم ريبوتو الصف دون أية كلمة وألا يعود إلى المدرسة ثانية . وقد يعلم بعد ذلك انه سقط مريضاً . سيذهب بضعة أطفال طيبين لزيارته. كان نيكولا يرى نفسه ضمن مجموعتهم ، وقد اختار من بين ألعابه هدية يمكنه تقديمها لمكسيم ريبوتو دون أن يجازف بإهانته . راح يتخيل نظرته المتمنة ، ووجهه وجسده الهزيلين ، وقد نهشتهما الحمى ، لكن الهدايا والكلمات الودية لن تجدي شيئاً ، وسيعلم ذات يوم بموت مكسيم ريبوتو ، فتذهب مجموعة الأطفال الطيبين إلى المأتم ويعاهدون والد ريبوتو الغارق في ألمه أن يصبحوا لطفاء معه وأن يظهروا طيبة قلبهم. لن يضحوا عليه ثانية ، ولن يحيونه بعد بالقوافي البلهاء لأسماء مشاهير الموسيقيين التي يلفظها باحترام ، على سبيل المثال شوبير ــ عبير ، أو شوبان ــ فرمان .

ما خلا هذه الأسماء ، لم يكن نيكولا يعرف شيئاً في الموسيقا ، لكنه بدل أن يعترف بذلك ، فضل أن يجيب بمراوغة نعم ، يحبها كثيراً . وبات يخشى الآن السؤال التالي ، الذي لا مفر منه : « وأي نوع من الموسيقا تحب ؟

ــ قال صدفة : بن ، شومان ... »

برطم باتريك فمه معبراً في آن معاً عن الاحترام والسخرية ، وقال بأنه ليس لديه هذا النوع من الأشرطة ،

والاصح الاغاني . طلب من نيكولا أن يختار شريطاً : ما عليه إلا أن يأخذ العلبة الصغيرة عن المقعد الخلفي ويقـرأ لـه العناوين . اطاع نيكولا . اخـذ يعاني في قراءة الكلمـات الانكليزية ، لكن باتريك صار يكمل المقاطع الأولى التي يتلعثم بها وقال عن الشريط الثالث إنه مناسب . دسه في مكانه فصدحت الموسيقا ، من منتصف الأغنية . كان الصوت أبحاً وساخراً ، والغيتارات تلسع كجلدات السوط مما يعطـي إحساساً بالفظـاظة ، وأيضاً بالليونة ، مثـل استرخاءات وحش . كان هذا النوع من الموسيقا في التلفزيون يدفـع والديه إلى خفض الصوت وهما ساخطين . لو سئل نيكولا عن رأيه ، لأجاب في فترة عادية إن هذا لا يعجبه ، لكنه تغير يومذاك . كان باتريك إلى جواره يربت على المقود لكي يعين الايقاع ، ويتحرك بانتظام ويدندن من وقت لآخر جملة مـع المغني . اطلق معه تأوهاً قصيراً حاداً . كانت السيارة تسير بانسجام تام مع الموسيقا ، تتسـارع معها ، وتتهادى عندما تواجه منعطفاً عريضاً ، وكل شيء يهتز بتناغم ، العجلات التي تنهب الطريق والمنحنيات ، وتبدلات السرعة ، ولا سيما جسد باتريك يتمايل برشاقة وهـو مستغرق في القيادة ، والابتسامة على شفتيه،وعيناه متغضنتان من أشعة الشمس التي تضيء واقية الريح. لم يسمع نيكولا من قبل بمثل جمال

هذه الأغنية ، كان كل جسده يشارك فيها ، وود لو أن حياته بكاملها تستمر على هذا النحو ، يسافر دوماً في المقعد الأمامي للسيارات مصغياً إلى هذا النوع من الموسيقا ، ويشابه فيما بعد باتريك : سائق ماهر ، وطليق أيضاً ، ومثله في منتهى الحرية بحركاته .

- ١١ -

« قال باتريك وهو يفتح باب المتجر : حسن ، يجب أن نكون جديين الآن . ماذا نحتاج ؟ »

عندئذ فقط تذكر نيكولا ، بعد نشوة المسير في السيارة ، ما جاءا يفعلانه هنا ، وأن حقيبته بقيت في صندوق سيارة والده وأن والده مات بلا شك .

« سأله باتريك : هل تتذكر ماذا كان يوجد في حقيبتك ؟

ـ قال نيكولا : ملابس احتياطية » حيره السؤال : فباتريك يعرف محتوياتها مرغماً ، ما دام قد طلب من الجميع أن يجلبوا الأشياء نفسها ، التي زودت بها لائحة الأهالي . الصحيح أنه كان يحق لكل واحد شيء أو شيئين إضافيين من اختياره ، كتاب أو لعبة من الشركة ، وفيما يخص نيكولا ، كان يوجد أيضاً الحفاض الذي أوصت به المديرة في حالة التبول في الفراش . لم تسعفه الشجاعة ليكلم باتريك عن ذلك .

« قال بعد تفكير : بالاضافة لذلك ، كان لدي خزنتي .

ــ سأل باتريك مندهشاً : خزنتك ؟

ــ اجل، خزنة صغيرة أعطيت لي كي اضع فيها الأسرار. يوجد رمز لفتحها وأنا وحدي أعرفه .

ــ وإذا نسيته ماذا يحدث ؟

ــ لن أستطيع فتحها ثانية . لن يستطيع أحد فتحها ثانيــة . لكنني احفظه عن ظهر قلب .

ــ أجل ، وإذا تلقيت ضربة قوية على رأسك وإذا فقدت الذاكرة ؟ هل كتبتها في مكان ما على الاقل ؟

ــ لا ، لا حاجة . على أية حال ، إذا فقدت الذاكرة ، فلن اعرف كذلك أين كتبتها .

ــ اعترف باتريك : صحيح . إنك ذكي »

تردد نيكولا ، وهو لا يتجرأ على إخبار باتريك انه توجد في الحقيقة مشكلة بشأن هذه الخزنة . كان والده قد قدمها له مرفقة بمغلف مغلق يحتوي الورقة التي طبع الرمز عليها . كان قد نصحه بتمزيقها بعد حفظها فأطاع نيكولا . لكن سرعان

ماخطر له أن والده فتح المغلف قبل تسليمه له ، ثم ختمه ثانية بمهارة وإذن ، كان لديه مدخل للخزنة . لعله كان من حين لآخر يلقي نظرة عليها ، ليعرف ما يخبئه نيكولا . لعله لم يهبها له إلا لأجل هذا . كان نيكولا يشتبه بذلك دون أن يتأكد منه ولم يودع في الخزنة شيئاً أكثر سرية من قسائم مخطات الوقود . لو أن والده فتحها ، فلا مناص له من خيبة الأمل . لكن الأرجح أنه مات . قاوم نيكولا ، كان هذا ليس أكيداً ، رغبته في أن يخبر باتريك بذلك ، واقترح على سبيل التاني مرغماً نفسه على اتخاذ نبرة مترفعة « يمكنني أن أخبرك بالرمز اذا أردت » .

هز باتريك رأسه : « لا . إنك لا تعرفني . إن حصل هذا ، حالما تخبرني بالرمز ، قد أزعجك وقد أسرق أسرارك.

ـ إنها في سيارة والدي على أية حال .

ـ لا اريد معرفة ذلك . هذا لا يخصني . لا الرمز ولا ما يوجد في خزنتك ؟ »

ابتسم ، وقال متظاهراً بتصويب مسدس نحو نيكولا . « ماذا يوجد في خزنتك ؟

ـ اجاب نيكولا بنبرة مكتئبة : لا شيء مهم »

انـزل باتريك في قسم ألبسة الأطفال قميصاً صوفياً سميكاً وبنطال تزلج كتيم فجربهما نيكولا في حجرة صغيرة بينما راح باتريك يكمل حاجياته : سروالان وزوجـان من الجوارب السمكية ، وجبة وفرشاة أسنان . كان البنطال على مقاسه ، لكنه أطول مما ينبغي . طواه باتريك بمهارة ، قائلاً إن هذا يفي بالغرض ، وإن والدته ستخيط الحاشية فيما بعد إذا أرادت . كان نيكولا يجد متعة كبيرة في هذه الطريقة للتسوق بدون قضاء ساعات في التردد بين درجتين، ولونين ، ومقاسين ، والجبين متغضن من الهم الذي يستتبع اي قرار بالنسبة لوالديه . رغب أيضاً بثوب دافيء أخضر وخبازي كثوب باتريك ، لكنه بالتأكيد لم يتجرأ على طلبه .

تبادل باتريك وهو يسدد الحساب بضع عبارات مع أمينة للصندوق . إنها فتاة شابة ، ضاحكة ، ويتضح في الحال انها تجده فتى جميلاً وتحب كثيراً تسريحة ذيـل الفرس لشعره ، ووجهه المتطاول ذي العينين الزرقاوين ، وأسلوبه الهادىء في الحركـة والمزاح . سألته مشيرة إلى نيكولا « هذا الفتى ابنك ؟ » أجاب باتريك بالنفي ، وأردف أنه إذا لم يطالب به أحد من الآن وحتى عام وليلة فإنه يرغب برعايته . أضاف : « نحن متفاهمان جيداً » وردد نيكولا العبارة بفخر . كان يتمنى إخبار الآخرين ، بهيئة لا مبالية ، أنه متفاهم جيداً مع باتريك . نظـر ، حول معصمه ، إلى

السوار البرازيلي الذي كان قد اعطاه له ، وعزم أن يـدع نفسه يطلق تسريحة ذيل الفرس فيما بعد ، حين لن تعود سيطرة والديه تضغط عليه .

استأنف باتريك في السيارة الموسيقا ، وتفوه بعبارة أخرى مأثورة وهو يقود ويتمايل على إيقاعها : « إذن ، الا تجد أننا ملوك نفط ؟ » استغرق نيكولا بضع لحظات ليفهم معنى ذلك : كان يعني أن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لهما ، وأن أحدهما لا يضايق الآخر ، وأنه لا يوجد شيء يدعو للقلق بحق ، وحين فهم أحس بحماس فرح ، كأن المقصود كلمة سر بينهما للاستخدام الشخصي حصراً . كان يخشى وهو يتكلم أن يحيد صوته الرفيع المقام ويكشف صغره ، لكنه تغلب على هذا الخوف ونجح في الإجابة ، كأنه لم يعلق أبداً أهمية على ذلك : « هذا صحيح . حقاً إننا ملوك النفط » .

- ١٢ -

كانوا يلهون بعد العصرية(*) : بتقليد نقابات الحرفيين ولعبة المنديل في المسرح . لكن باتريك قال يومئذ إنهم سيقومون بأمر آخر .

« سألوا : ماذا ؟

ـ سترون » .

بناء على أمره ، صف فريقٌ الطاولات والمقاعد وكل ما تزدحم به الصالة جانب الجدران . أطفأ المصابيح ، إلا أنه تركها مضاءة في الردهة ، بحيث يمكنهم الرؤية رغم كل شيء . كانت هذه الاستعدادات الغامضة تثير الأطفال . راحوا يطلقون قهقهات قصيرة مخنوقة وهم ينقلون الأثاث ، ويصوغون افتراضات : سنقلد الأشباح أو سنقوم بتدوير الطاولات . صفق باتريك بيديه وطلب الهدوء . قال : « ستستلقون الآن على الأرض » واستمرت بعض البلبلة

(*) العصرية : وجبة خفيفة عند العصر .

والضحكات أثناء قيامهم بذلك . أنتظر باتريك بصبر ، وقد بقي وحده واقفاً ، حتى يجد كل واحد مكانه . أعطى بعض التوجيهات بصوت هادىء ودون تعجل،لكي يأخذوا الوضعية الانسب : أولاً التمدد ، ومحاولة عدم التقوس ، والاحتفاظ بطول الظهر على تماس مـع الأرض ؛ وتوجيه الأكف نحـو السقف ؛ وإغماض العيون . « اغمضوا العيون ... » كرر بلهجة حالمة تقريباً ، كأنه هو نفسه يغمض عينيه ويتأهب للنوم ، وسكت . تلا ذلك لحظة صمت قطعها صوت متبرم : « ماذا نفعل الآن ؟

ــ أجاب آخر : الا تفهم ؟ إنه ينومنا مغناطيسياً ! »

رحبت بضع ضحكات بهذا الرد السريع ، الذي تجاهله باتريك . استأنف كلامه بعد قليل كأنه سمع السؤال الأول فقط : «لن نفعل شيئاً ... إننا نقوم طيلة الوقت بأمر ما ، نفكر في امر ما . الآن ، لن نفعل شيئاً . سنحاول عدم التفكير بشيء . إننا موجودون وهذا كل ما في الأمر . سنسترخي . ونتآلف ... » اصبح صوته هادئاً وحالماً اكثر فأكثر . راح يمشي ببطء في الحجرة ، بين اجساد الأطفال الممددة . شعر نيكولا به يمر قربه أكثر من كونه قد سمعه . فتح عينيه ثم اغمضهما في الحال ، خشية أن يُضبط متلبساً .

« قال باتريك : تنفسوا ببطء . من البطن . انفخوا بطنكم وافرغوه كالبالون ، لكن برفق ، وعمق ... » وكرر

عدة مرات متتالية : « شهيق ، زفير ... » وشعر نيكولا أن الآخرين حوله يجارون ذلك ويتناغمون مع إيقاعه . فكر أنه قد لا ينجح في ذلك أبداً . حين كانوا ينفخون البالون ، أثناء المراجعة الطبية ، كان هو دوماً الذي لديه الكفاءة الصدرية الأضعف . وكان يحس كأن ملزمة في صدره تعيق الهواء عن السريان . كان يستنشق ويزفر أسرع من الآخرين ، بطريقة متقطعة ، متلقفاً الهواء ، مثل شخص يغرق . لكن باتريك تابع ، بصوت غدا على نحو غريب بعيداً أكثر فأكثر وحاضراً أكثر فأكثر في آن معاً ، وأصبح يقول الآن : « شهيق ... زفير » وألفى نيكولا نفسه فجأة ، دون أن يفهم كيف ، منغمساً بالتنفس المشترك ، ضمن هذه الموجة التي تعلو ثم تنحسر حوله ، وتطوقه . صار يسمع أنفاس الآخرين ، وتنفسه الذي يمتزج فيها . أخذ بطنه يرتفع وينخفض برفق ، مطيعاً صوت باتريك . وبدأت تنحفر فيه فجوات يملؤها شهيقه كما يملأ المد تجاويف صخرة .

قال باتريك بعد برهة : « هذا حسن . ستفكرون الآن في لسانكم » ندت ضحكة خافتة من مكان ما من القاعة ، دون صدى . فكر نيكولا بسرعة أنه لو ضحك الجميع ، لفعل ذلك أيضاً ، ولوجد التفكير في لسانه أمراً مضحكاً . لكنه راح يتابع التمرين ويفكر في لسانه ، وفي اتصاله مع

الحلق ، كما كان يطلب باتريك ، وكان يحس بوزنه وصلابته ونسيجـه : أملس ورطب في بعض المواضع ، وخشن في اخرى . إنه إحساس يتزايد غرابة . أصبح اللسان ضخماً في فمه ، اسفنجة ضخمة يخشى أن يختنق بها ، لكن باتريك ازال هذه الخشية في اللحظة التي راودته فيها بالضبط قائلاً : « إذا صار لسانكم ضخماً جداً ويزعجكم ، فما عليكم إلا ابتلاع اللعاب » ازدرد نيكولا ريقه فعاد لسانه إلى حجمه الطبيعي . لكنه ظل يشعر به حاضراً على نحو غريب ، كأنه تعرف عليه للتو . طلب منهم باتريك بعد ذلك التفكير في انفهم ، وتعقب مسير الهواء في المنخرين . ثم تركيز انتباههم خلف أجفانهم ، وبين رموشهم ، وفي قذالهم . انتقل من هناك إلى الأذرع ، مبتدئاً بالأصابع التي جعلهـا تسترخي واحدة تلو الأخرى ، صاعداً نحو المرفق ، ثم الكتف . راح يقول : « أذرعكم ثقيلة ، ثقيلة جداً . ثقيلة إلى درجة أنها تنغرس في الأرض . وحتى لو أردتم ، لن يسعكم رفعها . . . » وشعر نيكولا بحق انه لن يستطيع . كان منتشراً على البلاط ، كرقعة ماء ، مشرفاً في الخيال على جسده الساكن ومع ذلك يقطنه كمنزل ذي اسس عميقة ، مكتشفاً الأروقة التي تعبر أعضاءه ، فاتحاً أبواب الحجرات المظلمة والدافئة ، الدافئة على الأخص . صـار الاحساس بالحرارة يتفوق الآن ولم يندهش لسماع باتريك يصفه ، وينصح باستقباله وتذوقه ، والاستسلام لاجتياح هذه الحرارة الشديدة لكن العذبة التي

تسري في العروق وتبرز على سطح الجلد ، مثيرة وخزات خفيفة ، ورغبة بالحك كان الأفضل عدم الخضوع لها. اضاف: « لكن إذا اعترتكم رغبة كبيرة في ذلك فهـذا ليس مهماً : هيا افعلوا » . كيف كان يعرف ذلك ؟ من أين تأتي قدرته على وصف هذه الأشياء العجيبة التي يشعر بها نيكولا ؛ في لحظة شعوره بها بالضبط ؟ وهل كان الامر نفسه بالنسبة للآخرين ؟ لم تعد تسمع ضحكات ، ولم تعد تسمع سوى الانفاس الهادئة ، مطيعة صوت باتريك. كان الجميع يزورون ، مثل نيكولا ، هذه المملكة الغامضة التي تنبسط داخلهم ، وكانوا جميعاً يصغون إلى الدليل بالثقة نفسها . كان باتريك يرشدهم أين يذهبون ما دام يتكلم ــ الآن جاء دور السيقان ، أصابع القدم الواحدة تلو الاخرى ، ربلات الساق ، الركب والأفخـاذ ــ لا يمكن لشيء أن يحدث . كانوا مطمئنين في قرارة جسدهم . ما زال هذا مستمراً . منذ متى ما زال مستمراً ؟

فجأة شعر نيكولا أن باتريك ينحني فوقه . فرقعت ركبته بخفة . كان قد أقعى ، واستقرت يداه على أعـلى صدره ، أسفل الكتفين بالضبط ، وأفقية تماماً . ظلتا ساكنتين . أخذ قلب نيكولا يخفق خفقاناً شديداً ، وبدا تنفسه الذي سكن البرهة يهتاج . لم يتجرأ على فتح عينيه ؛ وملاقاة عيني باتريك فوقه . قال باتريك بمنتهى الرفـق « صه ه ه ه . . . » كأنه يهديء حيواناً مضطرباً ، وزادت

كفاه الضغط قليلاً على صدر نيكولا ، واطراف أصابعه ممدودة نحو الكتفين بحيث تقربهما من الأرض ، وتغرسه فيها أكثر أيضاً . كان يراود نيكولا احساس بأنه يلهث ، ويجري في كل الاتجاهات داخل نفسه ، مصطدماً بالحواجز ، وكان يعلم في الوقت نفسه أن لا شيء من كل هذا يحدث في الخارج . بقي جسده ساكناً ومتشنجاً رغم جهود باتريك ، التي اكتشف انها تهدف إلى زيادة استرخائه . كان يسمعه يتنفس فوقه ؛ بمنتهى الهدوء ، ففكر في النموذج التشريحي لمحطات شل ، وفي تجويفة غطائه الذي يمكن سحبه لتفحص الداخل . كان باتريك يضغط على هذا الغطاء ، ويريد معاينة ما يوجد تحته والتآلف معه ، لكن هذا كان يثير فوضى جميلة ، كأن جميع أعضاء نيكولا المخبولة تنأى أبعد ما يمكن عن الحاجز الذي تجسه هاتان اليدان القاسيتان والدافئتان؛ ومع ذلك ود نيكولا أن تبقيا . وجد صعوبة في كبح تأوه حين أرختا ضغطهما ، ثم قطعتا التماس ببطء . ابتعد زفير باتريك ؛ وفرقعت ركبته أيضاً حين نهض . فتح نيكولا عينيه وادار رأسه قليلاً ليراه ينحني فوق طفل آخر ويبدأ من جديد . أغمض عينيه ثانية ، وسرت فجأة رعشة في جسده . هل أخرج والده القسائم من الخزنة ؟ هل كان قد حصل على النموذج لحظة الحادث ؟ وفي محاولة لتهدئة نفسه ، تخيل من جديد كيف سيحدث ذلك ، الهاتف الذي ربما يوشك أن يرن الآن ، حين يستند باتريك بصمت على صدر تلميذ آخر ، ومجرى السهرة المنحرفة عن مسارها

بالنبأ المرعب ، ثم الليل ، واليوم التالي ، وحياته كيتيم .
كان يفكر في الوقت نفسه أن من السوء الإستسلام لمثل هذه الاحلام، وأن هذا قد يسبب مصيبة. ماذا كان سيقول لو رن الهاتف فعلاً ، ولو تحقق ما تخيله حيال خضوعه للحزن ومواساته ؟ سيكون الأمر فظيعاً . لن يغدو يتيماً وحسب . بل مذنباً ، مذنباً على نحو مرعب . سيبدو كأنه قتل والده.
ذات يوم ، لكي يبرر والده نصائحه التقليدية بالحذر ، قص عليه حكاية عن أحد رفاقه القدامى في الدراسة الذي هدد اخاه الصغير ببندقية ، بغية اللهو بالتأكيد ، دون أن يشتبه أن البندقية كانت محشوة . ضغط على الزناد فأصابت الرصاصة الأخ الصغير في قلبه . راح نيكولا يتساءل : ماذا حدث بعد ذلك ؟ ماذا فعلوا لهذا الطفل القاتل ؟ ليس بالإمكان معاقبته ، فذلك ليس خطأه ، وقد عوقب آنفاً بما فيه الكفاية . إذن مواساته ؟ لكن كيف يواسى طفل فعل هذا ؟ هل يحاولا الكذب عليه حتى لا تفسد حياته ، واختراع رواية أقل رعباً عن الحادث ورويداً رويداً إقناعه بواقعيتها ؟ البندقية أطلقت من تلقاء نفسها ، وليس هو من كان يمسك بها ، ولا علاقة له بالأمر .... « قال باتريك : ببطء شديد ، ستبدؤون الحركة من جديد ... الأقدام أولاً . ارسموا دوائر صغيرة بأعقابكم .... هكذا ... دون استعجال .

الآن يمكنكم أن تفتحوا عيونكم »



— ١٣ —

في تلك الليلة ، ركب نيكولا السلسلة .

لم يكن الراشد الذي يرافقه والده ، بل باتريك . فقد عهداً بأخيه الصغير إلى والد الصبي المصادف في حديقة الملاهي . كان يرتدي سترته الرياضية الخضراء ، وقلنسوة على الراس مع أنها لاتعجبه ، وجزمته الحمراء الصغيرة من المطاط . راح يلوح لهما بيده مودعاً . كان والد الصبي يمسكه من يده الأخرى ،وهو يبتسم باستمرار . لم يعودا يميزان وجهه جيداً . بعد أن جلس باتريك في صدر الحجرة الصغيرة ، جاء نيكولا ليقف بين ساقيه الطويلتين اللتين تلامس ركبتاهما الحواجز المعدنية . انزل المستخدم الذي يشغل الأرجوحة الدوارة حاجز التثبيت عليهم وارتجه . اخذت السلسلة تدور . مرت بهدوء أمام الأخ الصغير الذي ما زال يلوح بيده ، ثم انفصلت عن الأرض ، وارتفعت . صارا في السماء . توقفت السلسلة . واندفعت فجأة في الهبوط . شعر نيكولا بنفسه ممتصاً في لجة ، وكانت هذه

اللجة في قرارة نفسه ايضاً . انفصلت معدتــه ، فاعتراه
الخوف واراد الضحك . أصبح ذلك يجري بســرعة الآن .
مرت السلسلة ثانية بمستوى سطح الأرض ، مصدرة أزيز
قطار منطلق بأقصى سرعة ، وصعدت من جديد في الحال .
لم يكد يسنح له الوقت هذه المرة برؤية القفص ، وأخيــه
الصغير ، والناس على الأرض ، حتى أصبحا من جديد ، لكن
بسرعة كبيرة ، وقــوة فائقــة ، مقذوفين نحــو الســماء ،
ومتوقفين أيضاً في هذه اللحظة وهذا المكان المرعبين ، لينقلبا
بعدها إلى الجانب الآخر فجأة . صار نيكولا يدفع بقدميــه
الأرض التي تسرع لملاقاتهما ، ويقبض بأصابعه على حاجز
التثبيت ، وباتريك يقبض عليها أيضاً ، ويداه الضخمتان
السمراوان تطوقان المعصمين الصغيرين . كانــت الأكمــام
المرفوعة لسترته القطنية تكشف على الساعدين، عن شرايين
نافرة تنتشر كالأسلاك . كان نيكولا يشعر وراء ظهره ببطن
باتريك القاسي الذي ، في التواتر نفسه لبطنه ، يتشنج على
عتبة الفراغ رهبــة . كان يتشنج أكثر أيضاً في اللحظــة
التي ينقلبان فيها جدياً محاولاً المقاومة ، ثم يتراخى قليلاً
في الأسفل ، لكنه يستعد مسبقاً للصعود من جديد ، ويبلغ
الذروة مسبقاً ، ويتجدد الرعب العجيب من الهبوط . كان
نيكولا يحتفظ بعينيه مغمضتين بينما يحاصر فخذا باتريك
المشدودين فخذيه . لكنه قبل الوصول إلى أعلى بالضبط ،
فتحهما فجأة ورأى ، بعيداً عنهما في الأسفل ، كل حديقة

الملاهي . أشباح صغيرة ، ونمل بشري يدب على الأرض ، على بعد سنوات ضوئية . خلال اللحظة التي استغرقها ذلك ، عزل نظره واحداً من هذه الأشباح ، شخصان: رجل يبتعد ممسكاً بيد طفل صغير . اخذت السلسلة تنحدر الآن ، ولم يعد يرى شيئاً ، لكنه فهم ما يجري . حدق في الدورة التالية ، حدق متجمداً من الرعب ، وامسى الرجل الذي يصطحب أخاه الصغير بعيداً الآن . كادت السلسلة اثناء انحدارها من جديد أن تحجبه عن بصره ، وهو متأكد من انه لن يراهما في الصعود القادم . سيكونان قد اختفيا . إنها المرة الأخيرة التي يرى فيها ، التي كان قد راى فيها اخاه الصغير ، على الأقل أخاه الصغير كاملاً ، بعينيه وجميع أطرافه ، وجميع الأعضاء التي يحتويها جسده . ما مر للتو تحت نظره الواهن ، هو الصور الأخيرة التي التقطها له ، عبارة عن شبح صغير بليد ذي سترة رياضية وجزمة مطاطية حمراء ، مسلماً يده لرجل ذي سترة زرقاء ، ولم يكن يفيد الصراخ شيئاً . فحتى باتريك لن يسمعه مع أن جسده ملتصق به ، وحتى لو سمعه ، وحتى لو شاهد الشيء نفسه ، فلن يفيده شيئاً كذلك . كانت دورة السلسلة تستغرق ثلاث دقائق ولا توجد شارة إنذار ، وليس بوسع احد النزول إلى الطريق . لدقيقتين أيضاً ، دقيقة ونصف ، كانا سيواصلان الدوران بينما يختفي أخوه الصغير وراء السياج ، وبينما يقوده الرجل ذو السترة الزرقاء نحو

الشاحنة الصغيرة حيث ينتظره شركاؤه بأرديتهم البيضاء ، وعندما سينتهي هذا ، حين ينزلان ، وأرجلهم مرتجفة ، سيكون الاوان قد فات . أكان وحده من رأى؟ أم أن باتريك راى ايضاً ؟ لا ، لم ير شيئاً ، ومن حسن حظه أنه لم يـر شيئًا . عند الوصول ، سيرفع نيكولا من بين ساقيه ، ويخرج من الحجرة الصغيرة متنحنحاً ، سيبتسم ويكرر انهما ملكا نفط . سيجهل لبضع ثوان أيضاً ما جرى ، وسيتمكن من الابتسام . كان نيكولا يحسده، وود لو ضحى بحياته مقابل الا يفتح عينيه ولا ينظر الى أسفل ، ويرى ما رآه ، لكي يشارك باتريك جهله السعيد ، ويعيش دقيقة اخرى معه ، في عالم لم يختف منه أخوه الصغير . ود لو ضحى بحياته لكي تستمر هذه الدقيقة أبداً ، وحتى لا تتوقف السلسلة ثانية . فما حدث للتو ، وما يحدث الآن في الأسفل ما كان ليوجد . وما كانا ليعلما به أبداً . ما كان ليوجد بعد في حياته سوى السلسلة التي تدور بسرعة متزايدة ، والقوة الطاردة المركزية التي تقذفهما نحو السماء ، بعيداً جداً ،وتلصق أحدهما بالآخر بشدة، وهذه الفجوة التي تنحفر في بطنه ، تمتصه من الداخل ، وتمتلىء لبرهة ، ثم تنحفر من جديد ، وتغور أعمق فأعمق ، وبطن باتريك على ظهره ، وفخذاه حول فخذيه ، وزفرته في عنقه، والضجة والثقب والسماء .

— ١٤ —

أيقظته النداوة ، وعلى الفور اليقين بالكارثة . كـان الغطاء مبللاً ، كما بنطال وسترة منامته . هَمَّ أن ينادي باكياً ، وهو يحسب نفسه في منزله ، لكنه كتم صيحته في الوقت المناسب . كان الجميع نياماً . والريح في الخـارج تهمس في أشجار الصنوبر . لم يتجرأ نيكولا على الحركـة وهو متمدد على بطنه . أمل في البدايـة أن تجف الأغطيـة والمنامة من الآن حتى نهاية الليل ، إذا سخنها بجسده . لن يلاحظ أحد شيئاً في اليـوم التالي ، إلا إذا صـعد لينظر ويشم الغطاء . لكنه لم يشم الرائحة المميزة للبول . بـل رائحة خفيفة جداً ، بالكاد تدركها الحواس . كانت كثافـة المستنقع أيضاً مختلفة ، كصمغ رطب بين جسده والغطاء . وهو مهموم ، دس يده برفق تحته وأحس بمادة لزجـة . تســاءل هــل انفتح بطنــه تاركـاً هـذا الســائل الدبق يسيل . دم ؟ كانت عتمة الليل أحلك مـن أن يتفحصـه ؛ لكنه راح يتخيل بقعة حمراء واسعة منتشرة على السرير ؛ وعلى منامة هودكان الزرقاء . لو بدرت منه أقـل حركـة

لتدفقت احشاؤه . مع ذلك ، لو انه جرح لآلمه ، ولم يكــن يشعر بالألم في اي مكان . كان خائفاً . لم يتجرأ على سحب يده نحو وجهه ، وعلى تقريب هذا المفرز الهلامي الذي خرج منه وهذه المادة الدبقة من فمه ومنخريه وعينيه . صــار يشعر بوجهه يتشنج في الظلام ، وعيناه تجحظان من الذعر لفكرة انه يحدث له أمر ما مرعب لم يحدث من قبل إلا له ، امر ما خارق .

في الكتاب الذي توجد فيه قصة قائمة القرد ، قــرأ « حكاية مرعبة » أخرى ، وهي حكاية شاب يرى جســـده يتحلل بالتدريج ويتميع ، ويتحول إلى راسب مائل للسواد ودبق ، بعد أن تجرع إكسيراً غريباً . من جهة اخرى ليس هو من يرى ذلك في القصة ، بل والدته التي تندهش من أنه لم يعد يريد مغادرة حجرته ، ولا السماح لأحد بدخولها ، ومن انه يعبر عن فكرته بصوت خفيض باطراد وممطوط ، وعما قريب بنوع من الهدير غير المفهوم. ثم يكف عن الكلام، ويتصل بواسطة بطاقات مدسوسة تحت الباب ، بطاقــات يبدأ خطها بالتلف ايضــاً ، والأخيرة منهــا لا تعود ســوى خربشة مخبولة على ورقــة مغطاة ببقع ســوداء وزيتية . عندما كسرت والدته الباب في أوج ذعرها ، لم يتبق علــى الأرض سوى بركة قذرة ، تطفو على سطحها فقاعتان همــا العينــان .

كان نيكولا قد قرأ هذه الحكاية بلهفة ؛ لكن دون ذعر حقيقي ، كأن ما تقصه لا يتهدده، وها هو شيء مماثل يحدث له ، ها هو جسده يفرز هذا القيح الذي يبلله . كان ذلك ينضح منه وهو أسوأ من جرح.عما قريب سيتحول جسده إلى قيح .

ماذا سيرى الآخرون في سريره عند الصباح ؟

كان خائفاً ، خائفاً منهم ومن نفسه . فكر أن عليه الفرار والاختباء والتميع لوحده ، بعيداً عن الجميع . انتهى الأمر بالنسبة له . لن يراه احد ثانية .

نجح في رفع بطنه بحذر ، وهو يخشى صوت الامتصاص الذي أعفي منه . بعد أن أبعد الشراشف والأغطية ، زحف نحو السلم ، وانزلق الى أسفل السرير . كان هودكان مغمض العينين . اجتاز العنبر على رؤوس اصابعه دون أن يوقظ احداً . يوجد في الممر مصباح برتقالي صغير يشير إلى زر مؤقت الإنارة ، لكنه لم يشعله . وفي الصدر تماماً ، كانت النافذة المطلة على الغابة بدون مصابيح ولا ستائر ، ترسم بقعة لبنية كافية لمعرفة موضعها . نزل الدرج . أخذت قدماه العاريتان تتشنجان على البلاط . كانت كل الأبواب في الطابق الأول موصدة ، إلا باب المكتب الصغير الذي اتصلت منه المعلمة صباحاً بوالدته . دخل

ولمح الهاتف وفكر ان بوسعه استخدامه لو اراد . يمكنه التكلم بصوت خفيض في عز الليل ، دون أن يعلم أحد بذلك ، لكن مع من ؟ وفي هذا المكتب أيضاً تحتفظ المعلمة والمشرفان بالأوراق والدفاتر الخاصة بالصف . كان بوسعه النظر إليها ، على أمل أن يجد شيئاً ما بشأنه . كان يستفيد من المرات النادرة التي يتركه فيها والده وحيداً في المنزل ليفتش أمتعتهما ، ومنضدة زينة والدته ، وأدراج مكتب والده ، دون أن يعلم بالضبط ما يبحث عنه ، وأية خبيئة، لكن بثقة باهتة أن إيجادها بالنسبة له هو قضية حياة أو موت وأنه لا ينبغي ، لو وجدها ، أن يعلم والداه بذلك . كان يحرص على إعادة كل شيء إلى موضعه بالضبط ، لكي لا يثير شكوكهما . كان يخشى أن يباغتاه ، فيعودا دون أن يصدرا صرير الباب وتهوي يد والده على كتفه فجأة . كان الخوف يعتريه وقلبه يخفق مستثاراً .

لم يطل المكوث في المكتب ، ونزل إلى الطابق الأرضي . كانت المنامة تلتصق ببطنه وفخذيه . كان غبش الرواق يأوي صفاً موهوماً ، ومقاعد مصفوفة على امتداد الجدار ، ونسق من السترة الرياضية المدلاة على المشاجب . باب المدخل موصد بالتأكيد ، لكن بالمزلاج فقط ، الذي يكفيه إدارته . سحب المصراعين الثقيلين نحوه ، دون ضجيج ، وشاهد أن كل شيء في الخارج كان أبيض .

- ١٥ -

كان الثلج يغطي كل شيء . ما تزال تتساقط ندف منه تطايرهـا الريح برفق . إنها المرة الأولى التي يرى فيهـا نيكولا ثلجاً بهذا المقدار وشعر بالعجب من أعماق ضيقه . لسع هواء الليل البارد صدره نصف العاري ، متعارضاً مع حرارة المنزل الراقـد وراءه كحيوان ضخم شبعان ، ذي أنفاس دافئة ومنتظمة . ظل ساكناً لبرهة على العتبة ، ثم مد يده التي استقرت عليها بخفة ندفة ثلج ، وخرج .

اجتاز الفسحة ، وهو يغرس قدميه الحافيتين في الثلج الذي لم يطأه أحد بعد . كانت حافلة الركاب أيضاً تبدو كحيوان راقد ، صغيرة الشاليه ، المضمومة إلى حضنها ؛ تنام مفتوحة العينين بمصباحيها الكبيرين المطفأين . تجاوزها نيكولا وسلك الدرب الموصل إلى الطريق المغطى بالثلج أيضاً . التفت عدة مرات ليرى آثار خطاه ، عميقة ووحيـدة على الأخص ، وحيدة على نحوٍ مذهل . كان وحيداً في الخارج هذه الليلة ، وحيداً يمشي في الثلج ، حافي القدمين ، يرتدي

منامة مبللة ، ولا أحد يعلم بذلك ، ولن يلقاه أحد . بعد بضع دقائق ، ستمحى آثاره .

بعد أن عبر المنعرج الأول ، هناك حيث توجد سيارة باتريك ، توقف . لمح بعيداً جداً ، بين أغصان الصنوبر ، ضوءاً أصفر يتحرك في الأسفل ، ثم اختفى . لا شك أنها مصابيح سيارة عابرة على الطريق الرئيسة في الوادي . من يسافر في وقت متأخر جداً ؟ من يقاسمه ، دون أن يعلم ذلك ، صمت ووحدة هذه الليلة ؟

حين خرج نيكولا ، كان يفكر بالمشي أمامه مباشرة حتى تخونه قواه ويسقط ، لكنه كان يحس بالبرد القارس إلى درجة أنه دنا لا شعورياً تقريباً من سيارة باتريك كأنه يدنو من ملجأ . اضطر لبلوغها ان يغوص في الثلج حتى ركبتيه . لم يكن الباب مقفلاً . ارتقى مقعد السائق ، وطوى ساقيه تحته ، محاولاً التكور خلف المقود . صار المقعد الآن ، بتأثيره ، مبللاً وجليدياً . دس يداً بين البشرة والزنار ، لكن السائل الدبق كان قد جف مثل قشره : ما كان يسيل ببطء هو الثلج فقط . أبقى يده أسفل بطنه وهو يرتجف ، بين السرة والشيء الذي لم يكن يحب تسميته لأن أياً من أسمائه لم يبد له حقيقياً ، لا اسم الحمامة الذي يستخدمه والداه أحياناً ، ولا اسم القضيب الذي قرأه في القاموس الطبي ،

ولا اسم العضو الذي سمعه في المدرسة . ذات يوم ، أخرج رفيق عضوه في ركن باحة الاستراحة ، وأثبت على سبيل الإضحاك أنه يطيعه . كان ينتصب عندما يناديه قائلاً : « هيا ، توتو ، انتصب يا توتو ! » فيلتقطه الرفيق بين إصبعين ، ويجعله يثب نحو بطنه بعد أن يشده كقوس ، لا بد أن يكون لهذا اسم ، لكنه اسم حقيقي ، قد يعرفه فيما بعد .

تذكر نيكولا حكاية الحورية الصغيرة ، التي كانت مع بينوكشيو أحد الكتابين المفضلين في طفولته . ثمة لحظة تؤثر فيه تأثيراً غريباً ، حين تحلم الحورية الصغيرة ، عاشقة الأمير الذي لمحته في العاصفة ، أن تصبح إنسانة لكي تجعله يحبها ، ولهذا تلجأ إلى سحر ساحرة . تعطيها الساحرة شراباً سيجعل ساقيها تنموان مكان ذيل السمكة وبالمقابل يأخذ منها صوتها . سيترتب عليها أن تجعله يحب خرساء . وإذا أخفقت ، وإذا لم يصارحها الأمير بحبه بعد ثلاثة أيام ، ستموت . اللحظة المفضلة لنيكولا ، هي تلك الليلة التي كانت تمضيها وحيدة على الشاطىء ،بعد أن تجرعت الشرب . كانت قد تمددت في الرمل ، وذيلها مغطى بأوراق ، وراحت تنتظر على شاطىء البحر ، تحت النجوم اللامعة والبعيدة ، أن يحدث التحول . كان رسم في كتاب نيكولا يتولى إظهارها في تلك اللحظة ، بشعرها الأشقر الطويل يخفي نهدبها ،

والحراشف التي تبدأ تحت سرتها بالضبط . لم يكن الرسم فائق الجمال ، لكن المرء يخمن النعومة العجيبة لبطنها فوق ذيل السمكة . اخذت الحورية الصغيرة تتألم أثناء الليل ، ولم تتجرأ على النظر تحت الأوراق ، هناك حيث الحالة التي مازالت عليها تصارع الحالة التي ستصيرها عما قريب . كانت تعاني ، تعاني كثيراً ، وتتأوه بصوت خافت ، مخافة ان ينجذب الصيادون الذين يثرثرون ، بعيداً جداً على الشاطيء ، أمام نارهم ، وهم يصلحون الشباك .حاولت الغناء بصوت خفيض ، لها وحدها ، حتى تسمع صوتهاللمرة الأخيرة.كان الفجر يقترب ، وبدأت تشعر أن المعركة انتهت، والسحر انجز عمله . صارت تشعر انه يوجد شيء آخر تحت الأوراق ، وأن ماكانته أصبح شيئاً آخر . كانت خائفة ، وروحها في غاية الحزن ، وقد اختنق صوتها في قاع حلقها . زلقت يدها على امتداد جسدها وهي تتلمسه وهناك تحت السرة ، حيث كانت تبدأ منذ ولادتها ، الحراشف والشرة، كانت البشرة الفضة جداً تتواصل . لم يكن شيء يثير نيكولا مثل تلك اللحظة،القصيرة جداً فيالكتاب لكن التيكان يستطيع قضاء ساعة كاملة في تخيلها ، حين تكتشف يدا الحورية الصغيرة ساقيها . وهو ينام متكوراً ، الأغطية مرتفعة عالياً ، كان يتظاهر قبل الإغفاء بأنه الحورية الصغيرة ، وبيديه يمسد فخذيه ، والبشرة الفضة داخل الفخذين ، الفضة إلى درجة ان الوهم كان ممكناً ، وإلى درجة انه كان بوسعه الاعتقاد انه يلمس فخذي الحورية الصغيرة ، ربلتي الساقين والكاحلين ،

الكاحلين الناعمين جـداً والرشيقـين للحوربة الصغيرة ، وكالمفنطين ، كانا يرتقيان من جديد ، هو والحوربة ، إلى داخل الفخذين حيث تكتسب الأيدي الدفء ، وكان عذباً جداً ومحزناً جداً ، هذا الاحساس ، الذي تمنى لو يدوم أبداً ، وان يجهش بالبكاء .

حالياً ، لم يفلح في البكاء ، ويشعر بالبرد الشديد ، لكن هذا شبيه جداً أيضاً بالحكاية . لم يكن نائماً في سريره ، بل وحيداً في الخارج ، تحت النجوم اللامعة والباردة ، محاطاً بالثلج اللامع والبارد ، وبعيداً جداً عن الجميع ، ونائياً عن اية مساعدة ، مثل الحوربة الصغيرة التي ادركت عند الفجر انها لم تعد جزءاً من عالم قاطني البحر ولن تصبح جزءاً من عالم البشر ، بتاتاً . كانت وحيدة ، وحيدة تماماً ، دون اي عون سوى دفء جسدها وطراوة بطنها الذي تلتف حوله ، حيث تمكث ملتجئة ، مصطكة الأسنان ، منتحبة من الخوف والحزن ، وهي تعلم انها خسرت كل شيء ، ولن تنال شيئاً بالمقابل . كان سيطمئنها سماع صوتها،لكن لم يعد لهاصوت، هذا أيضاً انتهى ، وأدرك نيكولا أنه من جانبه أيضاً ، سيلاقي المصير نفسه . لن يسمع أحد بعد صوته . سيموت من البرد اثناء الليل . سيعثرون على جسده في الصباح ، مزرقاً ، متصلباً بقشرة رقيقة من الجليد ، المتقصف تقريباً . باتريك هو الذي سيكتشفه بدون شك. سيخرجه من السيارة حاملاً

إياه من بين ذراعيه ، وسيحاول إعادته إلى الوعي مجرياً له التنفس الاصطناعي ، لكن دون جدوى . وباتريك أيضاً هو الذي سيغمض له عينيه المحدقتين من الألم والذعر . قد يجد صعوبة ، فالجفنان المتجمدان لايريدان النزول ، وسيخاف الجميع من مواجهة النظرة المذعورة للصبي الصغير الميت ، لكن باتريك سيجد حلاً . سيستطيع بأنامله البرونزية والرشيقة تليين وإسبال الجفنين بلطف ، وستبقى أصابعه على الوجه الساكن والفاقد النظرة بعد الآن .

سيكون من الواجب إخبار والديه. ستشهد كل المدرسة مأتمه .

بينما كان يتخيل تسلسل المأتم ويستمد منه بعض العزاء، حك غصن زجاج السيارة ، وتدفق فيه الخوف ثانية من حيوان اقل مما تدفق فيه من قاتل يدور من الليل حول الشاليه مستعداً لتقطيع الأطفال الذين قد يتملكهم الطيش بالابتعاد عنها ، وترك الدفء الهانيء للحيوان الراقد . فكر من جديد بالسيارة التي لمح مصابيحها على الطريق الرئيسة، وبالمسافر الذي كان وحده يسهر معه هذه الليلة ، وظل يترصد ضجة وقرقعة متلبدة لخطوة على الثلج . كانت يداه تكمنان بين فخذيه اللذين لم يتغلب على رجفانهما ، إحداهما محتضنة هذا الشيء الصغير جداً الذي ليس له اسم ، ولم يكن يبكي لكن وجهه يتشنج من الذعر ، يفتح فمه لكي يصيح

دون أن يحدث صوتاً ، يحملق ، ويرتدي قناعاً من الرعب الفظيع لكي يفهم أولئك الذين قد يجدونه، لدى رؤيته فقط، ماقاساه قبل الموت ، على مسافة بضعة أمتار منهم ، في الثلج والليل ، بينما كانوا جميعا نياماً .

- ١٦ -

كان كل جسده يرتعش ، بهدوء ، حتى دون أن يعي ذلك . لم يكن قد فقد رشده ، لكن الأفكار لم تصل بعد إلى الجريان في تلافيف دماغه الذي يجتاحه الجليد . كان هــذا يشبه أحياناً سمكة مخدرة ، مخبولة ، تصعد من الاعماق المظلمة والهادئة نحو السطح ، تقترب من قشرة الجليد التي تغطيها وقبل أن تختفي من جديد ، وقد تلقفها الظلام ، تترك أثراً صغيراً ، رمشة ، وخط الزبد أنمحى على الفور بغرابة : كان ذلك هو الموت إذن . الغرق على هذا النحو ، ببطء ، في الخدر والجليد ، حتى المكان الهادىء ، المعتم والعميق حيث لن يعــود يوجــد عمــا قريب نيــكولا ، ولا جســد للارتعارش ، ولا عزاء في الانتظار ، ولا شيء بعد . لم يعــد يعلــم إن كانت عينــاه مفتوحتــين أم مغمضتين . كــان يشعر بملامسة المقود على جبهته ، لكنه لم ير شيئاً ، لا داخل السيارة ولا خارجهــا ، حافــة الطريق المكسوة بالثــلج وأشجار الصنوبر التي يؤطرها زجاج النافذة . مع ذلك ، صدم شعاع ضوئي لبرهة جفنيه . كان هذا يتحرك ويغير

الإتجاه . فكر نيكولا بسرعة في المسافر الليلي ، ثم في سمكة ضخمة من الأعماق تلتف حوله وتغلفه بهالتها الفوسفورية . ود النزول ، والغوص أبعد فأبعد مع السمكة في الأعماق السحيقة ، للفرار من المسافر ، وحتى لا يرى وجهه . كاد يصرخ حين بهرته حزمة ضوئية من مصباح الجيب ، عندما فتح الباب . انحنت هيئة قاتمة ، مائلة نحوه ، واختنقت صرخته في حلقه . لمسته يد وقال صوت : « نيكولا ، نيكولا ، ماذا حدث ؟ » تعَرّفَ إلى هذا الصوت وعندئذ استرخى جسده برمته ، عضلاته واعصابه وعظامه وأفكاره ، وأخذ كل شيء يسيل ، يسيل باستمرار ، كالدموع ، بينما كان باتريك يرفعه بين ذراعيه .

كان قد اضطر إلى فتح عينيه ثانيـة ، لأنه تذكر باب السيارة المفتوح خلفهما بينما يصعد باتريك من جديد الطريق وهو يحمله . كان قد سها عن صفقه وهو يتعجل سحبه ، فانطبعت على شبكية عين نيكولا صورة هذا الباب يضرب الهواء كمروحة مكسورة في خاصرة السيارة . سيقول له باتريك وماري ـ آنج فيما بعد ، لكي يجعلاه يضحك ، إنه لم يكف عن ذكر هذا الباب بينما كانا يدلكانه ، وعن ترداد أنه يجب العودة لإغلاقه . كانا يتساءلان عما إذا كان سينجو وهو ، همه الوحيد ، أن لا يبقى الباب مفتوحاً على الطريق في الليـل .

كان يوجد بعد الضوء وجه باتريك وماري ــ آنج ، واصواتهما التي تردد اسمه . نيكولا ، نيكولا . إنه معهما ، وأيديهما الدافئة تطوف جسده ، تدلكه وتلفه ، ومع ذلك يناديانه كأنه ضاع في غابة وكأنهما يشاركان في غارة للعثور عليه. كان يرقد بين نباتات حراجية ، نازفاً دمه ، ويسمع من بعيد أصواتهما القلقة ، نيكولا ، نيكولا ، أين انت يا نيكولا ؟ ولم يكن بوسعه إجابتهما . بعد برهة ، جعلت الخطى الأوراق تصر ، كانا يمران قريباً جداً منه لكنهما لا يعلمان ذلك ولم يكن بوسعه التكلم ، أخذا يبتعدان الآن ، ويتابعان البحث في مكان آخر من الغابة . احتضنه باتريك فيما بعد بين ذراعيه، وصعد الدرج وهو يحمله . مدده ووضع عليه اغطية ثقيلة واسند راسه حتى يرتشف مشروباً ساخناً جعله يتقزز ، لكن صوت ماري ــ آنج أصر ، وقالت إن هذا مفيد وضروري ، أمالت الكأس وجرى السائل المحرق في حلقه . بدأ يحس بجسده من جديد ، تجوبه ارتعاشات غزيرة ومديدة إلى درجة أن بعضها أصبح ممتعاً . كان يتماوج تحت الأغطية ، كسمكة ضخمة تضرب بذيلها في حالة التباطؤ . كان يحافظ على عينيه مغمضتين ، ولم يكن يعلم إلى أين نقلوه ، لكنه يعلم أنه اصبح في مكان آمن ، وأنه ساخن وأنهما يسهران عليه ، وأن باتريك جاء لإنقاذه من الموت وحمله بين ذراعيه حتى هذا الدفء وهذه الطمأنينة . كانت الأصوات من حوله قد أصبحت همسات ، وراح

قماش خشن قليلاً يحك فمه . كان جسده يتابع الحركة ، راسماً انتفاضات بطيئة جداً تصل نهايتها أخمص القدمين ، وتطيل المكوث عندها كأنها ارادت الذهاب أبعد من ذلك بكثير ، ومطه اكثر ايضاً . كان صغيراً جداً في زاوية الفراش، ومعتصماً تحت الغطاء كما في كهف ، وكانت زاوية الفراش ، الأخرى تبدو انها ابتعدت للغاية وارتفعت أيضاً . كانت تطل عليه مثل كثيب رملي ضخم ، وهو يرتفع عالياً جداً في السماء ، ويتقدم للتلاشي تحت وجهه . على المنحدر الشديد لهذا الكثيب كانت تتدحرج كرة سوداء . لم تكن سوى بقعة صغيرة في البداية ، حين راحت تترك القمة ، لكنها بدات تصبح ضخمة اكثر فأكثر وهي تنحدر ، وكبيرة ، وصار نيكولا يتوقع انها ستشغل كل مكانه ، وأنه لن يوجد بعد إلا هي ، وانها ستسحقه . كانت تحدث باقترابها طنيناً تتزايد قوته ، ونيكولا يشعر بالخوف ، لكنه أدرك سريعاً انه يستطيع بمشيئته إرجاع الكرة السوداء ، وإعادتها فجأة إلى القمة ، وإلزامها بهبوط جديد سيتمكن من إيقافه ثانية قبل ان يسحقه . تماماً قبل أن يسحقه : كانت المتعة الفائقة بتركها تدنو أقرب ما يمكن ، وبالتخلص منها متأخراً ما امكن .

- ١٧ -

كان ساخناً ، ساخناً جداً ، ومشكوراً على نفسه . كان مستيقظاً لكنــه يرجيء لحظة فتح عينيه لكي يطيل هــذا الدفء ، وهذا الهناء . صار اللون داخل جفنيه برتقالياً . طنين خفيف ، مهدىء ، ربما يصدر عن أذنيه ، وربما عن غسالة في جهة ما من الشاليه . خلف الكوة ، يدور الغسيل وهو يتلوى ببطء في المـاء الساخن جـداً . تلامس ركبتا نيكولا ذقنه ، ويده الممسكة بالأغطية تضغط على شفتيه . يشعر بمفاصل أصابعه وحرارتها الجافة . لا بد أن يـده الأخرى في جهة ما من الفراش ، مطمئنة ودافئة في العمق حيث يلتف جسده . عندما فتح عينيه أخيراً ، كان الضوء دافئاً . كانوا قد أسـدلوا الستائر ، لكن الشمس خلفهـا تتوهج بألق لدرجة أن الحجرة كانت تغرق في غبش برتقالي ، مبقع بنقط صغيرة ساطعة . ميز المنضدة والأباجور ، وأدرك أنهم وضعوه في المكتب حيث يوجد الهاتف . أطلق تأوهـاً قصيراً ، لكي يسمع نفسه بنفسه ، ثم تأوهاً آخر أقوى ، ليعرف هل يوجد أحد حوله. اقتربت خطى في الممر. جلست

المعلمة على حافة سريره . سألته بصوت رقيق ، وهي تضع يدها على جبينه ، إن كان يشعر بتحسن ، وفيما إذا لم يكن يتألم في أي موضع . اقترحت أن تفتح الستائر واجتاحت اشعة الشمس الحجرة بمرح . ثم ذهبت لتبحث عن ميزان الحرارة . هل كان نيكولا يعرف قياس درجة حرارته بنفسه ؟ هز رأسه ، أمسك المقياس الذي تمده نحوه واخفاه تحت الأغطية . وهو ما يزال متكوراً ، خلع بنطال المنامة تلمساً ووجهه المقياس بين ردفيه . كانت نقطة التماس باردة ، ووجد صعوبة في العثورة على الفتحة ، لكنه نجح في ذلك وهز من جديد رأسه حين سألته المعلمة إن كانت الحال على ما يرام . انتظر لبرهة ، كانت تواصل مداعبة جبهته ، ثم سمعت خشخشة قصيرة تحت الأغطية . قالت المعلمة إن هذا حسن وعاد المقياس إليها ، قرأت : « ٣٩٫٤ درجة ، عليك أن ترتاح » سألته بعد ذلك إن كان يريد أكل شيء فأجاب بالنفي ، إذن يشرب ، يجب على المرء أن يشرب حين تكون درجة حرارته مرتفعة . شرب نيكولا ، ثم أوى إلى الدفء والعذوبة وخدر الحمى الزاخر . لعب من جديد بالكرة السوداء . أيقظه بعد ذلك رنين جرس الهاتف . وصلت المعلمة بسرعة كأنها كانت قد انتظرت في الممر . تكلمت بضع دقائق خافضة صوتها وناظرة إلى نيكولا بابتسامة ، ثم بعد أن وضعت السماعة ، جلست ثانية على طرف سريره لتقيس له درجة حرارته مرة أخرى ، وتقدم

لــه الشــراب من جديد . سألته برفق إن سبق له التنزه ليلاً ، دون أن يعي ذلك . قال إنه لا يدري وضغطت يــده كأن هذه الإجابة تكفيها ، وهذا ما فاجأ نيكولا واراحه في آن معاً . بعد ذلك أيضاً ، سمع صوت محرك الحافلة على الفسحة،وفي الطابق الأرضي،سمع الضجيج الفرح للصف العائد من درس التزلج ، وحدثت تجمهرات على الدرج ، وتعنيفات وضحكات . طلبت المعلمة الا يصدروا الكثير من الضوضاء لأن نيكولا مريض . ابتسم واغمض عينيه ثانية . كان يحب أن يمرض ويصاب بالحمى ويعيد الكرة الضخمة السوداء إلى اللحظة التي تتدحرج فيها نحوه لتسحقه . كان يحب هذه الضوضاء الغريبة ؛ والطنــين والصرير ولا يعلــم هل تنبعث مــن خــارج جســده أو داخله . كان يحــب أن يهتمو به دون أن يطالبوا بشيء ، ما عدا أن يتناول بعض الأدوية . أمضى نهاراً عجيباً ، تارة يدع نفسه يندس في غفوة مسكونة بالحمى ، والاخرى يطيب له أن يكون مستيقظاً وساكناً ، يصغي من فراشه إلى صخب الشاليه دون أن يضطر للمشاركة فيه . في موعد الوجبة ، علت في الأســفل قرقعة أدوات المائدة والصحون التي يكدسونها ، والأصوات الحادة التي ترافقها ؛ والضحكات والتهديدات غير الجادة للمشرفين والمعلمة . كانت هذه الأخيرة تصعد لرؤيته كل ساعة ، وصعد باتريك مرة أيضاً . مثلها ، لمس جبينه وقال له إنه شخص فريد حقاً . ود نيكولا لو يشكره على إنقاذه

لحياته ، لكنه خشي أن يكون لذلك وقع سيء بين ملوك النفط وعاطفي جداً ، فسكت . قالت المعلمة لنيكولا في الليل التالي إن عليها الاتصال بوالدته . كانت قد تلفنت لها صباحاً ، بينما كان نائماً ، والآن عليها أن تزودها بالأخبار . سيكون بوسعه التكلم معها لو أراد . أطلق نيكولا تنهيدة واهنة ، تعني أنه يشعر بنفسه أضعف من أن يقوم بذلك ، وسمع فقط ماكانت تقوله المديرة . إنه مصاب بحمى قوية ، وأن هذه خسارة طبعاً بالنسبة له ، إلا أنه لاحاجة لإعادته إلى المنزل . من جهة أخرى ، لا يوجد أحد لمرافقته . تكلمت بعد ذلك عن السرنمة . قالت إن مثل هذه الحالات ليست نادرة ، إلا انه من الطريف أنهم لم يلاحظوه حتى الآن . أدرك نيكولا بحسب تعاقب الإجابات أن والدته تحتج : لم يكن قد أصيب بالسرنمة من قبل . أغاظ نيكولا الإصرار الذي أخذت تدافع به عنه ، كأن ذلك كان مرضاً مخجلاً يمكنهم تحميلها مسؤوليته . كان سعيداً جداً لأن المعلمة تنسب حكاية الليلة الفائتة إلى السرنمة . هكذا ، لم يعد مضطراً لتبرير سلوكه . لم يعد ذلك خطأه ، ولم يكن يتعلق بإرادته . صاروا يتركونه وشأنه . اقترحت المعلمة : « أود أن أصلك بنيكولا ... » . إزاء تكشيرته المتوسلة ، أسرعت بالإضافة « ... لكنه نائم الآن » فوجه لها نيكولا ابتسامة امتنان قبل أن يتكور في سريره من جديد ، مماوجاً كل جسده ، موارياً وجهه في الوسادة ومبتسماً من تلقاء نفسه ، هذه المرة ، لأجل نفســـه .

— ١٨ —

نام نيكولا جيداً ،وكان اليوم التالي يوماً سعيداً تماماً.
دخل باتريك في الصباح إلى المكتب وقال بالابتسامة المتواطئة للك النفط إنه يكفيه هكذا استئثاراً بالمديرة : مع كل الثلج الذي تساقط ، لم يكن موضع بحث أن يفوتها التزلج أيضاً ، وبما أنهم لن يدعوه لوحده في الشاليه ، فسيأتي أيضاً . أراد نيكولا القول إنه لا يشعر بتحسن خوفاً من أن يرغموه على التزلج ، لكن باتريك بدأ بإلباسه ، أي أخذ يضع على منامته عدة طبقات من الملابس المدفئة التي ، كما قال ضاحكاً ، كانت تعطيه هيئة بيبندا . بعد ذلك ، ابلغه : « الطبقة الأخيرة ! » ومدد البيبندا على السرير ورد عليه الغطاء ، قمطه ورفع الصرة التي تبرز منها تماماً عينا نيكولا . نزل الدرج وهو محمل على هذا النحو ، ودخل الصالة الكبيرة حيث كان الصف بعد انتهاء الفطور يتأهب للمغادرة . قال باتريك مازحاً « هذه صرة البياضات القذرة ! » وانفجرت ماري ـ آنج ضاحكة . دار الآخرون حولهما . كان يراود نيكولا بين ذراعي باتريك إحساس بأنه متسلق فوق شجرة

للافلات من قطيع ذئاب . كان بوسعهم على الدوام أن يزمجروا وأن يسيلوا لعابهم ، ويخدشوا الجذع ، أما هو فمطمئن على أعلى غصن . لاحظ أن هودكان ليس في عداد حلقة الذئاب ، بل يقرأ ، على الحياد تقريباً ، دون أن يبدو مهتماً بالموقف . لم يكلم أحدهما الآخر منذ يومين .

أعد له باتريك في الحافلة ما يشبه فراشاً صغيراً من مقعدين ووسادة كبيرة. قالت ماري ـ آنج إنه باشا حقيقي وأن باتريك سيفسده إذا استمر في ذلك . كان الآخرون في الخلف يسخرون قليلاً ، لكن نيكولا يتظاهر بعدم سماعهم.

قال باتريك حين وصلوا إلى القرية : « والآن ، إلى الحانة » . احتضنه من جديد بين ذراعيه ، وهو ما يزال ملفوفاً في الغطاء ، وحمله هكذا إلى مقهى القرية الواقع عند أسفل الدروب . أجلس نيكولا على نحو مريح فوق مقعد قرب النافذة ،بينما أخذ يثرثر مع صاحب المقهى وهو رجل ضخم ذو شاربين . من هناك ، عبر شرفة من الخشب المنحوت يصور أشجار صنوبر ،كان يطل على المنحدر الصغير الذي تجري فيه دروس التزلج للمبتدئين . اخذ الأطفال الآن ينتعلون أحذية التزلج ، ويلوحون بعصيهم ، بدت ماري ـ آنج والمديرة مرهقتين، وكان نيكولا في غاية السعادة لتهربه من كل ذلك . أعطاه باتريك رزمة قصص قديمة

مصورة ، ليست شيقة كثيراً ، لكنها ستشغله وسأل عما يرغب السيد بشربه . قال صاحب المقهى مازحاً : « أعطه نبيذاً سخناً وسيشفى بأقصى سرعة ! » طلب باتريك شوكولاة ، ثم شعث شعر نيكولا وخرج . لحق المجموعة بعد أن عبر وراء النافذة . كان الجميع يلتفتون نحوه بثقة، كأنه وحده يمكنه حل جميع المشكلات ، التثبيتات الرديئة والقفازات الضائعة والأحذية المربوطة بشكل سيىء ؛ كل ذلك وهو يبتسم مازحاً .

بقي نيكولا في المقهى الساعات الثلاث التي استغرقها درس التزلج . لم يكن يوجد أحد سواه . كان صاحب المقهى يحضر الطاولات للغداء دون أن يعيره أي اهتمام . كان نيكولا يشعر بنفسه على ما يرام ، وهو مستند على وسادته ، ومقمط في غطائه كالمومياء . لم يشعر أبداً بمثل هذه الراحة في حياته . أمِلَ أن تستمر إصابته بالحمى بما يكفي لكي يكون الحال نفسه غداً وبعد غد وطيلة أيام رحلة التزلج الأخرى . كم يوماً أيضاً ؟ كان قد أمضى من قبل ثلاث ليال في الشاليه ، ولا بد أنه بقي منها حوالي العشرة . عشرة أيام في المرض ، معفياً من كل شيء ، منقولاً من قبل باتريك في الأغطية ، سيكون هذا رائعاً . تساءل كيف يمكنه الاحتفاظ بالحمى التي بدأ يشعر الآن أنها تخف . لم تعد أذناه تطنان، وصار يترتب عليه إرغام نفسه على الارتعاش . أحياناً كان

يرسل تأوهاً خفيفاً ، كأنه فقد نصف وعيه ويعاود الاهتزاز بمعزل عن إرادته . الآن وقد ظنوه مسرنماً ، ربما يمكنه الخروج ثانية في الليل ، لكي يحتفظ بمرضه وبالاهتمام الذي يحاط به .

كانت جيدة هذه القصة عن السرنمة . كان قد خشي اللوم ، وها هم بفضل هذا التفسير لا يلومونه على شيء ، ولا يطلبون منه شيئاً . لقد أشفقوا عليه بالأحرى . كان يعاني من مرض غامض ، وهم لا يعلمون متى يوشك أن يعاوده ولا كيف يمنعوه : أجل ، كان هذا حسن حقاً . ستقنع المديرة والديه ، رغم ريبتهما . سيتهامسان في المنزل ، نيكولا مصاب بالسرنمة . ومن جهة أخرى لن يقولا ذلك أمامه : حين يصاب طفل بمرض خطير ، لا يتكلم والداه عن ذلك أمامه . بأي معيار كانت الإصابة بالسرنمة خطيرة ؟ وبمعزل عن الفوائد التي يصادفها من جانبه ، هل كان ذلك ينطوي على أضرار حقيقية ؟ كان قد عرف أنه من الخطير جداً إيقاظ مسرنم أثناء نوبته . لكن كيف يكون خطيراً ؟ بالنسبة لمن؟ ماذا يمكن أن يحدث ؟ هل كان يوشك على الموت ، أو أن يصبح مجنوناً إذن ،ويرغب بخنق من أيقظه ؟لو قام بعمل خطير ومرعب ، أثناء نوبة ، فهل سيعتبر ذلك خطأه ؟ بالتأكيد لا . فائدة أخرى للتسرنم ،

هي صعوبة إفحام مسرنم . للإدعاء بأنه مزكوم ، لا بد من الحمى ، التي يمكنهم ضبطها ، بينما لو أخذ نيكولا يمشي كل ليلة ، ويداه ممدودتان أمامه ونظره شارد ، فربما يظنونه يتصنع حتى يجذب الاهتمام أو يرتكب تحت هذا الستار أعمالاً محظورة ، ولكنهم لن يستطيعوا ، بسبب الشك ، اتهامه بها . إلا إذا وجدت بالتأكيد تقنيات خاصة. كان نيكولا ، بشيء من القلق ، يتخيل والده يخرج من صندوق سيارته جهازاً ذو عدادات وعقارب وخوذة يطوق بها جبهته وسيبرهن بشكل قاطع أنه بكامل وعيه لو نهض ليلاً ، وأنه مسؤول عن تصرفاته ويسعى لخداع محيطه .

منذ مرض نيكولا ، لم يعد يجري الحديث عن والده . انتظروا عودته في اليوم الأول ، أو على الأقل أخباره بواسطة الهاتف . كان يبدو أن الأمر بديهي ما دام من المؤكد أنه سيفتح صندوقه ويجد فيه الحقيبة . ولكن حين انقطعت أخباره ، كفوا ببساطة عن الإعتماد عليه وعن التساؤل عن موعد وصوله . لو أن ذلك الصمت ، كما كان نيكولا قد فكر ، عنى أن حادثاً حصل له ، لعلموا بذلك . لوجدوه على حافة الطريق منذ ثلاثة أيام . لتم إخطار والدته وبالتالي إخطاره أيضاً . وحتى لو قرروا تأجيل لحظة إبلاغه بذلك ، لشعر من موقف الآخرين أن أمراً خطيراً حدث . لكن لا . كان الأمر غريباً : هذا اللغز وحقيقة أن الجميع أهملوه

بسرعة ، لم يعد يبدو ملحوظاً . وحتى نيكولا ، فيما عـدا الافتراضات ؛ تخلى عن ذلك أيضاً . صـار يأمل فقط أن لا يعود والده ، وأن تتواصل رحلة التزلج على هذا المنوال : كل الأيام كهذا اليوم ، وأن تستمر إصابته بالحمى . راح ينظر خارجاً ، عبر البخار وأشجار الصنوبر المنقوشـة . كان باتريك قد غرس على المنحدر الخفيف عصياً يترتب على الأطفال المرور بطريقة ملتوية بينها . بعضهم يعرف التزلج مسبقاً ويماحكون أولئك الذين لا يعرفون . مكسيم ريبوتون يسقط على ردفيه . كان نيكولا ساخناً . يغمض عينيـه ويشعر بالإرتياح .

— ١٩ —

كان الشرطيان يرتديان لباساً كحلياً ذا قطع جلدية على الكتفين ، لكن دون سترة ولا معطف ، والفكرة الأولى التي راودت نيكولا ، وهو ملفوف في غطائه ، هي أنهما يشعران ولا بد ببرد قارس . كان قد اندفع تيار هواء جليدي إلى المقهى عندما فتحا الباب ، وقد توقع أن يرى زوبعة ثلجية في إثرهما . كان صاحب المقهى قد نزل إلى القبو عبر باب أرضي يقع خلف المشرب وأمضى دقيقة تقريباً قبل أن تدفعه الضجة في الصالة للصعود من جديد ، بحيث أن نيكولا ظن أن أمر استقبال القادمين الجديدين يعود إليه. لو كانت الظروف مختلفة ، لأرعبه هذا الدور ، لكن الحمى ولا سيما واقعة أنه عُرف بالمسرنم ، كانتا تمنحانه جرأة شخص يشعر بنفسه معذور سلفاً ، ومتحرر من نتائج أعماله . قال بقوة كافية من ركنه : « صباح الخير ! » لم يكن الشرطيان المشغولان بنفض الثلج عن جزماتهم قد لاحظا وجوده ، وبحثا بعيونهما عن الذي تكلم ، كأنهما يتوقعان اكتشاف قفص ببغاء معلق في مكان ما . ظن نيكولا نفسه

لبرهة انه اصبح غير مرئي . تحرك قليلاً لكي يساعدهما . انزلق الغطاء عن كتفيه ، عندئذ ، استدل كلاهما عليه في آن معاً ، مسترخياً قرب النافذة المغشاة بالبخار . تبادلا نظرة خاطفة ، شبه قلقة ، واقتربا منه بحيوية . خاف نيكولا : رغم الحمى والسرنمة ، أن يكون قد ارتكب حماقة وعرض نفسه لخطر داهم وربما يواجه شرطيين مزيفين . وهما يقفان فوقه ، تمعنا فيه دون أن يقولا شيئاً ، وتبادلا من جديد نظرة . هز اطولهما رأسه وخاطب الآخر نيكولا في النهاية لكي يسأله عما يفعله هنا . شرح له نيكولا ، لكنه كان يشعر ان إجابته لم تعد تهمهما كثيراً بعد أن مرت لحظة الخطر القصيرة التي كان موضوعها للتو .

استنتج اطولهما :«حسن، إذن أنت لست وحيداً ». في هذه اللحظة ، ظهر صاحب المقهى على الباب . ترك الشرطيان نيكولا ليتبعاه إلى المشرب . كانا مهمومين : فقد اختفى طفل من قرية بانوسيير ، على بعد بضع كيلومترات من هنا . إنهما يبحثان عنه منذ يومين دون جدوى . فهم نيكولا ما أمله الشرطيان لدى رؤيته ، وفكر أنه بطريقة ما كان الأمر يحتاج للقليل : منذ يومين ، هذا يعني أن الطفل اختفى حين أوشك هو نفسه على القيام بذلك .

كان قد قرأ وهو أصغر سناً مغامرات نادي الخمسة وعشيرة السبعة ، وما زال يتذكر بعضها التي تبدأ هكذا :

كان أحـد الأطفال المخبرين ، وقـد فاجأتـه محادثـة بين راشدين ، يشتبه بلغز ستحله المجموعة فيما بعد . اخـذ يتخيل نفسه مباغتاً المحققين بسرعته ، وعاثراً على الطفـل المفقود ومصطحبـاً إيـاه إلى مركز الشرطـة قائلاً بهيئـة متواضعة إن ذلك لم يكن صعباً جداً : حسبه أن فكر ثـم امتلك الحظ . سأل عـن عمر الصبي رافعـاً صوته لكـي يسمعاه ومحاولاً الا يحيد عن الصـوت الجهوري . التفت الشرطيان وصاحب المقهى نحوه مندهشين .

أجاب أحد الشرطيين : « ٩ سنوات ويدعى رينيه . ألم تره صدفة ؟

ــ قال نيكولا : لا أدري . ألديكما صورته ؟ »

بدا الشرطي مندهشاً أكثر فأكثر لرؤية نيكولا يتحمل مسؤولية التحقيق ، لكنه أجاب بانقياد أن لديه فقط إعلانات البحث التي طبعت لتوها من أجل تعليقها في البلد . اخرج من حقيبته حزمة إعلانات عرضها على نيكولا :

« هل يعني لك هذا شيئاً ؟ »

كانت الصورة بالأبيض والأسود ، منسوخة برداءة . مع ذلك يتضح أن رينيه ذو شعر أشقر ، ويرتدي نظارتين ،

اما ابتسامته فتكشف عن اسنان امامية متباعدة كثيراً ، ما لم يكن إحداها ناقصاً . يذكر النص أن المرة الأخيرة التي شاهده فيها الناس كان يلبس سترة تزلج حمراء ، وبنطالاً من المخمل الاسمر . تأمل نيكولا ملياً إعلان البحث ، وهو يشعر بوطأة النظرات المحتارة للشرطيين ، المشتتين بلا شك بين نفاد الصبر أمام هذا الصبي الذي يدعي الأهمية وفكرة انه لا ينبغي إهمال أي أثر . استغرق قليلاً في سروره ، وهز راسه أخيراً واجاب بالنفي ، وأنه لم يشاهده . أراد الشرطي استعادة إعلانه ، لكن نيكولا اقترح تعليقه في الشاليه حيث يقيم صفه . هز الشرطي كتفيه . قال زميله مستنداً على المشرب « في المكان المخصص له ، لم لا ؟ » واستطاع نيكولا الاحتفاظ بغنيمته .

قال صاحب المقهى ، الذي كان هذا القلق يسئمه على نحو واضح ، إنه اختفـاء مؤقت ولا بد ، ولا شيء خطير جداً . رد أحد الشرطيين « نتمنى ذلك » . تنهد الآخر الذي يقف أمام المشرب : « أمـا أنا ، فهذا النوع من الاعلانات يجعلني مريضاً . لانك لن تشاهد هنا إلا واحداً منها ، وثمة حظوظ كثيرة أيضاً أن يجدوا الصبي . أما في مركز الشرطة، فلدينا لوحة اعلانات كاملة ، ومنها ما يعود إلى عدة سنوات . ثلاث سنوات ، خمس سنوات ، عشر سنوات . بحثنا ، وعلى التوالي ، توقفنا عن البحث كرهاً . لا نعلم شيئاً .

والاهل لا يعلمون شيئاً . ربما ما زالوا يأملون ، وعلى أي حال يفكرون في ذلك دوماً . فتصور ؟ بأي شيء آخر يمكن التفكير عندما حصل هذا ؟ »

كان الشرطي قد بدأ كلامه بصوت أصم ، متفحصاً الصورة وهازاً رأسه كما لو أنه سيصدم رأسه بين دقيقة واخرى بالمنضدة . بدا زميله وصاحب المقهى متضايقين من ثورة الانفعال هذه . اعترف صاحب المقهى آملاً تغيير الموضوع : « هذا قاسٍ ، أجل ... » لكن الشرطي هز رأسه أيضاً وتابع : « ماذا يمكن للأهل الادعاء ؟ أن ابنهم مات ؟ أن الأفضل لو مات ؟ أم أنه يعيش في مكان ما ، وأنه كبر؟ يشاهدون أوصافاً على هذا المنوال، السترة الرياضية، الطول ١٢ر١ متر ، الوزن ٣١ كغ ، وبعد ذلك ينظرون الى التاريخ ، إنه في عمر السبع سنوات . سبع سنوات يصبح الصبي خلالها ١٢ر١ متر و ٣١ كغ . ماذا يعني هذا ؟ » اوشك الشرطي أن ينفجر منتحباً ، لكنه تمالك نفسه . اطلق تنهيدة قوية ، كأنه يريح نفسه ، ويعتذر للآخرين . ثم قال بأسلوبه : « انتهى الأمر ، ومضى ، لا تقلقوا ... » وردد برفق : « عجباً ، ماذا يعني هذا ؟ »



- ٢٠ -

كانت حمى نيكولا قد خفت،وفي الحقيقة لم يعد مريضاً ، لكن كل شيء ما زال يجري حسب أمنيته ، كأنه ترتب عليه البقاء هكذا حتى نهاية رحلة التزلج ، كأنه لدى اختيار هذا المكان ، بات من الملائم للجميع أن يلازمه . لم يحاولوا حتى تبرير حجره الصحي وهم يراقبون درجة حرارته أو أثناء إعطائه الأدوية . كان يبـدو ببساطة أن المعلمة والمشرفين نسوا أنه صار بإمكانه حضور دروس التزلج مثل الآخرين ، وتناول الطعام على المائدة معهم والنوم في العنبر . حين كانوا يدخلون إلى المكتب الصغير الذي حل محل حجرة نومه منذ يومين حتى الآن ، يشاهدونه متمدداً على الأريكة ملفوفاً بغطائه ، مستغرقاً في كتاب أو حالماً أغلب الأحيان ، وبينما يتلفنون أو يبحثون عـن أوراق ، يبتسمون له ، ويوجهون إليه بضـع كلمات لطيفة كما يخاطبون حيواناً أليفـاً ، أو طفلاً أصغر بكثير مما كان عليه . كانوا يتركون الباب منفرجـاً . فيطل تلميذ برأسه ويسأله هـل هـو علـى ما يرام ، وهل هـو بحاجـة إلى شـيء ما . كانت

هذه الزيارات قصيرة ، دون ضغينة وأيضاً دون رهان . ولم يقم هودكان بأية زيارة له .

بعد الظهر الذي تلا مرور الشرطيين إلى المقهى جاء لوكا أيضاً ليحيي نيكولا ، الذي استوقفه وطلب منه خدمة : ينبغي أن يأتي هودكان لرؤيته ، يريد التكلم معه . وعد لوكا أن يقوم بالمهمة ونزل ثانية إلى الطابق الأرضي ، حيث تصدر ضوضاء مكتومة للأجساد التي تسقط . كان باتريك يعطي الصف درس تدريب على الكاراتيه .

انتظر نيكولا حتى المساء دون جدوى . أهو هودكان الذي لا يريد المجيء أم لوكا هو الذي لم يبلغ الرسالة ؟ جاء موعد العشاء ، ثم موعـد النوم . حدثت بلبلة معتادة ، استمرت ، ثم ساد الهدوء . أخذت تعلو من القاعة الكبيرة دون أن يستطيع تمييز ما تقوله ، أصوات المشرفين والمعلمة الذين راحوا يثرثرون وهم يشربون منقوعاً ساخناً ويدخنون لفافات تبغ كعادتهم قبل أن يذهبوا بدورهم إلى النوم.عندئذ دخل هودكان المكتب .

لم يكن قد أصدر أي ضجة وفاجأ نيكولا . قبل أن يتاح له الوقت لتكهن اي شيء ، كان هودكان واقفاً أمامه بمنامته وينظر إليه بقسوة . كان تعبير وجهه يقول إنـه لم يعتد أن يستدعيه غر على هذا النحو وانه يأمل الا يكون غادر مكانه

لأمر تافه . لم يتفوه بكلمة ، فقد كان على نيكولا أن يتكلم أولاً . فضل الالتــزام بالصمت أيضاً واخرج من تحت وسادته إعلان البحث الذي بسطه لكي يعرضه على هودكان . كان مصباح السرير الصغير ينشر في الحجرة ضوءاً لطيفاً ، برتقالياً ، وطنيناً غير محسوس تقريباً لا بد أنه يصدر عن المصباح . ظلا يسمعان الضجة الهادئة لأصوات الراشدين في الأسفل التي كانت الضحكة الودية لباتريك تقطعها أحياناً . راح هودكان يتملى الاعلان دون استعجال . كان نوع من المبارزة قد بدأ ، بحيث يخسرها من يبادر إلى الكلام ، وأدرك نيكولا انه من الأفضل أن يكون هو .

قال : « كان يوجد شرطيان في المقهى ، هذا الصباح . يبحثان عنه منذ يومين .

— أجاب هودكان ببــرود : أعلم . شاهدنا الاعلان في القريــة » .

شعر نيكولا بنفســه مضطرباً . كان يحسب أنه يبلغ هودكان ســراً ، بينما صار الجميع مطلعين الآن . لم يكن عليهم سوى التكلم عن ذلك في المنابر . ود أن يعيد هودكان إليه الاعلان : فهو ثروته الوحيدة ، الورقة الوحيدة التي يقتنيها زيادة عن الآخرين في هذه القضية ، وكان قــد بادر إلى التخلص منها بحماقة . سيسأله هودكان الآن لماذا جعله

يأتي ، وعما لديه ليقوله له ، وقد سبق لنيكولا أن قال كل شيء . سيكون غضب هودكان واحتقاره المخيف من نصيبه. كان ينظر إلى نيكولا من فوق الاعلان بهيئة باردة ويقظة لم تفارقـه منذ دخوله . كان يبـدو قادراً على البقاء هكذا ساعات ، دون أن يكل من الضيق الذي يسببه لضحيته ، وظن نيكولا أنه قد لا يحتمل هذا التوتر .

عندئذ ، تحـول هودكان بأسلوبه المفاجيء . استراح وجهه ، جلس دون تكلف على طرف السرير بجانب نيكولا وقال : «الديك اثر ؟» ودفعة واحدة تصدعت كتلة الضغينة، ولم يعد نيكولا خائفاً ، بل على العكس ، صار يشعر مع هودكان بهذا التواطؤ الواثق ، الهامس ، الذي حلم به غالباً والذي يوحد اعضاء نادي الخمسة . أخذا في الليل ، وعلى لمعان ضوء المصباح ، بينما الجميع نيام ، يحاولان حل لغز مـرعب .

افتتح حديثه : « يعتقد الشرطيان أنه اختفاء مؤقت . يأملان في النهاية ... »

ابتسم هودكان بسخرية ودودة ، كأنه يعرف حق المعرفة صديقه نيكولا ، ويعلم على أي طريق سيقوده . أكمـل : « وأنت ، لا تعتقد ذلك » . ألقى نظرة على الاعلان الذي ما زال مبسوطاً على ركبتيه : « أنت تجد أنه ليس له رأس طفل هارب » .

لم تكن قد عنت على بال نيكولا هذه الحجة ، كان يلاحظ جيداً ضعفها ، لكنه وافق لأنه ليست لديه حجة أخرى . كان هودكان قد قبل عرضه بالتطوع للبحث عن رينيه على درب اللغز . فبات يرى نفسه مكتشفاً برفقته ممرات سرية، مفتشاً سراديب رطبة ، منثورة بعظام ميت ، وبما انه ليس لديهما أي أثر للانطلاق ، فالأفضل عدم اختلاق صعوبات . راودته فجأة فكـرة فتنته . كان والده قـد قال له كثيراً الا يتكلم في الأمر إطلاقاً ، والا يخون الثقة التي أولاه إياها مدير المستوصف ، لكن نيكـولا أصبح يسخر من ذلك . هودكان ورينيه يستحقان هذا .

« خاطر قائلاً : لدي فكرة بسيطة جداً ، لكن . . .

ـ أمر هودكان : قل » وقص عليـه نيكولا ، دون أن يتمنع كثـيراً ، حكاية المتجريـن بالأعضاء البشرية الذين يخطفون الأطفال لتقطيعهم . هذا ما حصل لرينيه برأيه .

سأل هودكان بنبرة لا تعبر عن الشك بل على العكس عن اهتمام يقظ : « وما الذي جعلك تعتقد ذلك ؟ »

أوضح نيكولا : « لا ينبغي إخبار أحد بذلك ، لكن في الليلة التي خرجت فيها ، لم يكن ذاك نوبة سرنمة ، لم أفلح في النوم ولمحت لبرهة من نافذة الممر ضوءاً على الموقف .

كان رجل معه مصباح يتنزه . بدا لي هذا غريباً ، عندئذ نزلت . تبعته متخفياً حتى وصل إلى شاحنة صغيرة مركونة على الطريق . كانت شاحنة صغيرة بيضاء ، تماماً مثل تلك الشاحنات التي يخبئون فيها طاولات العمليات. صعد الرجل وانطلق . كان المصباحان مطفئين ، ولم يشغل حتى المحرك بل بدأ ينزل الطريق متدحرجاً لئلا يحدث ضجة . بدا لي هذا مريباً ، أنت تفهم . اعدت التفكير في هذه الحكاية عن تجارة الأعضاء البشرية وقلت لنفسي لا بد أنهم يتسكعون حول الشاليه ؛ حتى إذا ما خرج أحد لوحده ...

ـ تمتم هودكان : « نَجَوْتَ من خطر داهم ، إذا حدث هذا » . كان نيكولا يحسه مأسوراً ، وأخذ يستمتع بالدور الجديد الذي يمثله . كان ذلك قد عن على باله فجأة ، وراح يرتجل ، لكن الحكاية برمتها أصبحت تتحقق أمامه الآن ، وكل ما جرى في الأيام الأخيرة صار يجد تفسيراً ؛ بدءاً من مرضه الخاص . تذكر كتاباً يتظاهر فيه رجل التحري انه مريض أيضاً ، ويهذي ، لكي يهدىء ريبة الأشرار ويراقبهم بطرف نظره . وهذا بالضبط ما يقوم به ، هو ، منذ يومين . في الكتاب ، يتابع معاون رجل التحري ، الواسع الحيلة لكن الأقل ذكاءً منه رغم ذلك ، التحقيق وحيداً ، بأقصى جهده ، ظاناً معلمه على الحياد . وفي النهاية ، يلقي المعلم القناع ويعلن الحيلة ، وينكشف أن بقاءه في سريره

قد قدمه نحو حل اللغز أكثر بكثير من مضاعفة المعاون لاقتفاء الآثار والاستجوابات . كان نيكولا ، المنتشي بحكايته ، يلجأ إلى تصور مقبول لتوزيع الأدوار بينه وبين هودكان، والمدهش أكثر ، هو أن هودكان بدا أيضاً متفقاً معه . كان كلاهما يتخيلان المتجرين بالأعضاء البشرية يترصدون الشاليه ، هذا الخزان الكبير من الأكباد والكلى والعيون والأجساد الغضة ، منتظرين الفرصة التي لم تأت وقابضين على طفل القرية المجاورة ، الصغير رينيه الذي كان منحوساً لعبوره وحيداً في النواحي : هذا هو السبب . هذا هو السبب على نحو مرعب .

قلق هودكان فجأة وقال : « لماذا لا ينبغي إخبار أحد بشيء من ذلك ؟ إذا كان هذا صحيحاً ، فهو خطير جداً . يجب إخطار الشرطة » .

رازه نيكولا . صار هودكان هذه الليلة هو من يطرح الأسئلة برجاحة عقل وجلة ، وهو ، نيكولا ، يسمره بالأجوبة المتكهنة .

بادر قائلاً : « لن يصدقونا ؛ ثم خافضاً نبرة صوته أيضاً : وإذا صدقونا ، سيكون الأمر أسوأ . لأن المتجرين بالأعضاء البشرية لديهم عملاء في الشرطة .

ــ سأل هودكان : كيف تعرف هذا ؟

ـ اجاب نيكولا بسطوة : « إنه والدي . يعرف كثيراً من الأطباء بسبب مهنته » وبينما راح يتكلم ، ناسياً أن كل شيء يقوم على أساس كذبة من جانبه ، خطرت على باله فكرة جديدة : ربما كان لغياب والده علاقة ما بالحكاية . ماذا لو انه بافت المتجرين ، وماذا لو أنه حاول ، هو ، تعقبهم جدياً ؟ وماذا لو انه كان سجانهم أو لو أنهم قتلوه ؟ ورغم هشاشة الفرضية ، فقد باح بها مع ذلك إلى هودكان ، ولكي يعززها اختلق من جديد : وهذا أيضاً لا ينبغي على الأخص التكلم عنه ، لأن والده يحقق في هذه القضية من تلقاء نفسه دون علم الشرطة . يقتفي أثر المتجرين مستخدماً مهنته كغطاء وعلاقاته في عالم الاستشفاء . لهذا السبب جاء إلى المنطقة ، بحجة اصطحاب نيكولا الى الشاليه : كان مخبروه قد أبلغوه عن وجود الشاحنة الصغيرة التي تجري فيها العمليات الجراحية السرية . إنها مطاردة خطرة على نحوٍ مرعب . كان المقصود منظمة قوية ، عديمة الذمة ، يهاجمها وحيداً .

« طلب هودكان : انتظر ، هل والدك رجل تحري ؟

ـ قال نيكولا : لا ، لا ، لكن ...

توقف عن الكلام ، وهذه المرة هو الذي نظر إلى هودكان بحزم لا يلين ، كأنه يقدر طاقته على تحمل ما تبقى له

ليخبره به . راح هودكان ينتظر . أدرك نيكولا أنه لم يضع شيئاً مما قاله له موضع شك واستأنف خائفاً قليلاً من كلماته : « له حساب يصفيه معهم . فقد خطفوا اخي الصغير العام الفائت اختفى في حديقة ملاهي وعثر عليه فيما بعد وراء سياج . كانوا قد انتزعوا كلية . هل تفهم الآن ؟ » .

اخذ هودكان يفهم . كان وجهه متجهماً .

قال نيكولا أيضاً : « لا أحد يعلم ذلك ، اقسم لي انك لن تتكلم عنه ؟ » .

اقسم هودكان . كان نيكولا يستمتع بسيطرة قصته عليه . كان قد حسده على والده الميت ، الميت ميتة عنيفة ، كأنها منبع نفوذه ، وهو ايضاً اصبح لديه الآن اب مغامر ، منصف يتعرض لألف خطر ، متورط في حكاية ، حظه ضئيل في الخروج منها حياً . من جهة اخرى ، راح يتساءل بقلق الى اين تقوده المزايدة المجنونة لهذه الليلة ، هذا الشلال من الاختلاقات التي لم يعد بوسعه التراجع عنها . إذا تكلم هودكان ، فستحصل مصيبة رهيبة .

تمتم : « أخطأت بإخبارك . لأنك الآن في خطر أيضاً . إنك هدف لهم » .

ابتسم هودكان بمزيج مـن السخرية والشجاعة الذي يجعله لا يقهر ، وقال : « إننا في القارب نفسه » في هـذه اللحظة ، عادت الأمور إلى نصابها . صار من جديد الكبير الذي أحسن الصغير صنعاً بالبوح له بأسراره الخطيرة والذي يأخذ الأمور على عاتقه ، وقد يحميه . سمعا المقاعد تحتك ببلاط القاعة في الأسفل ، ثم أصوات المعلمة والمشرفين الذين يصعدون الدرج ليعودوا إلى حجراتهم . وضـع هودكان إصبعه على فمه محذراً وتوارى تحت السرير . دفعت المديرة الباب المنفرج بعد لحظة : « عليك النوم يا نيكولا ، الوقت متأخر » . فقال نيكولا بصوت ناعس : اجل ، اجل ، ومدت ذراعها لتضغط قاطـع التيـار . سألت المعلمة أيضـاً : « أهذا حسن ؟

ـ قال : أجل .

ـ إذن ، طابت ليلتك » خرجت ثانية إلى الممر واطفأت نوره أيضاً . ابتعـدت خطاهـا ، وتناهى إلى السمع باب يصر ، وماء يتدفق من صنبور .

همس هودكان وهو يرتقي السرير ثانية قرب نيكولا : « هذا حسن . ينبغي وضع مخطط الحملة الآن » .

- ٢١ -

حين توقفت الحافلة في ساحة القرية ، عند أسفل الحلبة التي تجري فيها دروس التزلج ، ادرك نيكولا أن أمراً خطيراً حدث . كانت مجموعة من حوالي اثني عشر شخصاً ، رجالاً ونساءً ، تقف أمام المقهى . وحتى من بعيد يرى المرء على الوجوه تعبير الألم والغضب . جذبت الحافلة الأنظار العدائية بعد أن ركنت . قال باتريك مقطباً حاجبيه إنه نازل لاستطلاع الأمر . أمرت المعلمة الأطفال بالإنتظار . هؤلاء الذين كانوا يغنون منذ مغادرة الشاليه أغنية هزلية عن مخيم العطلة ، سكتوا من تلقاء أنفسهم . اقترب باتريك من المجموعة امام المقهى . كان يدير ظهره ، وشعره بتسريحة ذيل الفرس يتطاير فوق قلنسوة سترته ، ولم يروا وجهه ، بل وجه الرجل الذي يتحدث إليه ، والذي يجيبه بعنف . امرأتان إلى جواره ، تحملقان فيه أيضاً ، إحداهما تلوح بقبضتها منتحبة . لم يتحرك باتريك خلال بضع دقائق ولم يتفوه أحد بكلمة داخل السيارة . توقفت ماسحة الزجاج مع المحرك ، واخذ البخار يتكاثف على النوافذ فيمسحونه

بطية الكم أو باليد ليشاهدوا ما يجري خارجاً . حين يفعلون هذا عادة ، كانوا يخطون رسوماً أو رسائل ، إلا أن نيكولا فوجيء بتجنبه لذلك ، وبدل أن يحاول صنع دائرة لم يرسم شيئاً ، كأن كل واحد خشي أن يشتمه الناس الذين يراهم محتشدين خارجاً . كانوا يحسونهم قادرين علــى قلــب السيارة وإحراقها بركابها ، عند أدنى حركة يعتبرونها تحدٍ . عاد باتريك أخيراً . كان وجهه أيضاً قد اضطرب : أقل عنفاً من وجوه سكان القرية ، لكنه متشنج . نزلت المعلمة حالاً كي تلاقيه وتسمع ماينبغي عليه قوله بعيداًعن وجود الأطفال. قطع هودكان الصمت بصوت لا ينم عن افتراض ، بل عن يقين يقتسمه الجميع في الحقيقة :

قال : « رينيه مات »

كان قد قال « رينيه » وليس « الصبي الذي اختفى » كأن الجميع يعرفونه ، كأنه كان واحداً منهم ، وشعر نيكولا أن الرعب المؤجل بالترفع حتى الآن يطغى عليه . صعــد باتريك والمعلمة السيارة من جديد . فتحت المعلمة فمهــا لتتكلم ، إلا أنها بدل الكلام أغمضت عينيها ، وعضت على شفتيها ثم التفتت نحو باتريك . وضع يده على ذراعها برفق وأكــد :

« لا حاجة لأن تحاولي إخفاء ذلك ، حدث أمر خطير جداً . أمر مخيف . وجدوا رينيه ، الطفل الذي اختفى في

بانوسيير ، ميتاً . هـذا ما حـدث » اطلق تنهيدة ، لكي يظهر كم كان صعباً عليه التفوه بهذه الكلمات .

قال هودكان من صدر السيارة « قتلوه » وهـذه المـرة أيضاً كان تأكيداً أكثر منه سؤالاً .

أجاب باتريك بنبرة مختصرة « أجل ، قتلوه » .

سأل هودكان : ولا يعلمون من ؟

ــ لا ، لا يعلمون من » .

رفعت المعلمة المنديل الذي تمسكه بين أصابعها المتشنجة أمام فمها ، وبعد جهد كبير نجحت في الكلام . كان صوتها يتهـدج .

قالت : « اظن أنه يوجد بينكم من هم مؤمنون . أعتقد إذن أن عليهم تلاوة الصلاة . قد يكون هذا جيد » .

ساد صمت مديد . لم يكن أحد يتجرأ على الحركة .

غطى البخار النوافذ لدرجة أنهم لم يعودوا يرون شيئاً في الخارج .

ضم نيكولا يديه واراد أن يتلو في سره الصلاة ، إلا انه لم يعد يفلح في تذكر الجمل ، ولا حتى الجملة الأولى . بدا له أنه يسمع بعيداً جداً صوت والدته ينطق بمقتطفاتها التي ليس بوسعه تردادها . كانت فيما مضى سيدة معلمة دين . منذ تبديلهم منزلهم ، انتهى ذلك ، ولم تعد تستظهر لـه ولاخيه الصغير الصلاة مساءً . تخيل ، مع أن هذا مستحيل حكماً ، فتصور الحركات فقط كان يرعبه ، تخيل أنه يضع يده في جيب قميصه ، ويخرج منها الإعلان الذي أعطاه له الشرطي ، ويبسطه ـ أوه ، حفيف الورق ! ـ ويتأمل صورة رينيه . تساءل عما سيفعله به في الساعات والأيام القادمة ، وهل سيتجرأ على إخراجه ، والاحتفاظ به ، وأين سيضعه . لو أن خزنته معه ، لاستطاع ترتيبه فيها ، وبعد ذلك دفنها ونسيان رمز فتحها . لو عثر عليه أحد في جيبه ، أو باغتـه وهو ينظر إليه ، ألن يحزر بماذا تسلى هو وهودكان أثناء الليـــل ؟

صارت محادثتهما الليلية واختلاقاته تبدو له الآن إثماً ومشاركة مشينة وفظيعـة في جريمـة وقعت فعـلاً . بات يستعيد الوجـه الشبيه بالدمية لرينيه ، شـعره الممرغ في الطين ، أعضاؤه المتباعدة كثيراً ، أو سنه اللبنية الساقطة . كان قد اضطر لوضعها تحت وسادته ، منتظراً أن تأتي الفأرة الصغيرة لاستبدالها بهدية . عيناه خلف النظارتين غائرتان

من الذعر ، ذعر صبي صغير ينحني مجهول فوقه لقتله ، وكان نيكولا يحس بالتصاق تعابير وجه رينيه على وجهه ذاته ، فمه يكشف عن صرخة صامتة قد لاتنتهي أبداً . ود تقريباً لو تهوي في هذه اللحظة ، يد على كتفه ، وان يفتش شرطي قميصه ويخرج منه إعلان البحث الذي يشي به . شرطي ، أو والد رينيه ، الثمل من الألم والمستعد للقتل بدوره والذي قد يقتله بالتأكيد لو علم بماذا تسلى هو وهودكان . هل كان أهل رينيه موجودين في المجموعة المتجمهرة في الساحة والتي صار يفصله عنها جدار من البخار الكثيف ؟ أما زالوا جميعاً هناك ؟ ماذا كان هودكان يفعل ؟ هل يصلي ؟ هل يصلون جميعاً حوله ، خاشعين في هذا المعبد من البخار ؟ هل ستوجد نهاية لهذا الصمت ، وهذا الرعب الذي يلفهم جميعاً والذي تعاقد هو معه دون علم الجميع ؟

- ٢٢ -

لم يحصل درس التزلج . عادوا إلى الشاليه وحاولوا تمضية النهار . لا شك ستأتي لحظة يمكنهم فيها استئناف الحياة الطبيعية والتفكير في أمر آخر ، لكن كل واحد كان يحسب أن هذه اللحظة ما تزال بعيدة ، وأنها لن تحين خلال رحلة التزلج . مع ذلك ، لم يكن لديهم شيء يفعلوه غير انتظارها . بعد أن أصبح اللعب مستحيلاً ، قررت المعلمة أن تعطي درساً ، نص إملاء أولاً ، ثم تمارين في الحساب . وبما أنه بقي بعض الوقت قبل الغداء ، ولأنه كان على كل واحد كتابة رسالة على الأقل لأهله خلال الإجازة ، فقد اقترحت البدء بذلك . لكنها غيرت رأيها بعد أن وزعت بضع صفحات من الورق الأبيض . تمتمت هازة رأسها : « لا ، ليس الوقت مناسباً » . كانت تبدو منهكة وهي واقفة وسط القاعة ، تشد بقوة رزمة الأوراق في يديها اللتين شوهد ابيضاض مفاصلهما .

بدرت من هودكان ضحكة خفيفة خبيثة وألقى هذه العبارة : « إذن ، يمكننا كتابة موضوع إنشاء . قصنوا ذكرى جميلة من رحلة التزلج .

ـ قالت : كفى يا هودكان ! وكررت صارخة تقريباً : كفى ! » كان وحده بين الأطفال يتجرأ على الكلام ، كأن واقعة انه لم يعد له اب تعطيه الحق بذلك ، كما ظن نيكولا . سأل باتريك بعدها ، اثناء الغداء الذي بدت قرقعة أدواته أيضاً مغلفة بالقطن ، إن كانوا عثروا على رينيه قرب الشاليه . تردد باتريك ، ثم اجاب بالنفي ، على بعد ٢٠٠ كم ، في مقاطعة أخرى .

اضاف : « هذا يعني شيئاً على الأقل ، هو أن ...
ـ تردد ايضاً ـ هو أن القاتل لم يعد في المنطقة .

ـ استطردت المعلمة : هذا يعني ايضاً أنه ليس لديكم سبب للخوف ، إنه أمر مرعب ومريع لكنه انتهى . لا تخشوا شيئاً هنا » .

تهدج صوتها وهي تنهي الجملة ، واخذت أوتار عنقها ترتعش . نظرت إلى الأطفال الجالسين إلى المائدة كأنها تبغي إعلان عجزهم عن تكذيب هذه اللهجة المطمئنة .

الح هودكان : « لكنهم قتلوه هنا حتماً . لم يقطع ٢٠٠ كم لوحده .

ـ قالت المعلمة بنبرة يمتزج فيها التوسل بشيء من الحقد : اسمع يا هودكان ، أفضل أن تتوقف عن الكلام في

هـذا . حدث الأمر ، ليس بمقدورنا شيء حياله ، ليس بمقدورنا ان نغير فيه شيئاً . إني آسفة جداً لانكم واجهتم في مثل سنكم حادثاً كهذا ، لكن يجب التوقف عن الكلام فيه . التوقف ، أهذا مفهوم ؟ »

اكتفى هودكان بهز رأسه ، واستمرت الوجبة بصمت . بعدها أخذ البعض يقرأ ويرسم ، والآخرون يلعبون لعبة العائلات السبعة . أما أولئك الذين كانوا يريدون القيام بلعبة التخفي ، فقد أمرتهم بالبقاء في الشاليه ، ولا سيما بعدم الخروج .

تهكم هودكان : « كنت أعتقد أننا لم نعد نخشى شيئاً .
ـ صاحت المعلمة : هذا يكفي يا هودكان ! طلبت منك أن تسكت ، إذن ، إذا كنت لا تستطيع ، فاصعد إلى أعلى لوحدك ، إلى عنبرك ، ولا أريد أن أراك ثانية قبل العشاء » .

صعد هودكان دون أن يناقش . ود نيكولا لو يتبعه ، ويتكلم معه ، ولكن علاوة على أن المعلمة ما كانت لتسمح له بذلك ، بات يخشى من كشف تواطؤ مشبوه . صار الأفضل الآن أن يحاول كل واحد على حدة التخلص من الورطة . مكث في ركن متظاهراً بقراءة قصة مصورة . كلما قلب صفحة ، توهم سماع حفيف الإعلان في جيب قميصه الذي لم يكن قد خلعه ، متذرعاً بأنه بردان . وهو ملفوف على

هذا النحو ، كان يبـدو منتظراً أن يدعوه أحـد للخروج ، والا يعود ثانية ابداً الى هنا . راح جسد الصبي الصغير ، المتناثر في الثلج ، يتماوج امام ناظريه . لكن ربما لم يكن يوجد ثلج ، هناك حيث عثروا عليه . هل قتله المجرم هناك أم هنا ؟ حتى لو كان قد لاطفه بهدايا أو وعود ، كما يفعل بحسب راي والدي نيكولا أولئك الرجال الأشرار الذين قيل له طيلة طفولته أن يحذرهم ، فإنه يستبعد أن يكون رينيه ترك نفســه يقاد بعيداً جـداً دون عصيان . كان قد اضطر للقيام برحلة في صندوق السيارة حياً أو ميتاً ، وكان هذا ايضاً اسوأ من التفكير انه ما زال حياً في تلك اللحظة . لقد احتجز في الظلام دون ان يدري أين يقاد .

قص والد نيكولا ذات يوم إحدى تلك الحكايا التي يرويها عن جولاته وتدور حول المشفى،حكاية صبي صغيركان عليه أن يخضع لعملية هينة ، لكن الطبيب المخدر ارتكب خطأ ورفعوا الطفل عن طاولة العمليات أصم واعمى وأخرس ومشلول وغير قابل للشفاء . اضطر ان يستعيد وعيه في الظلام . لا يسمع شيئاً ، لا يرى شيئاً ، لا يحس شيئاً بأنامله . كان مستغرقاً في حجاب العتمة الأبدية . يتجمعون حوله ولا يعلم ذلك . في عالم قريب جداً ، لكنه مفصول عن عالمه نهائياً ، راح والداه والأطباء ، المتشنجون من الرعب ، يتفحصون وجهه الشاحب دون أن يعلموا إنكان هناك أحد ما، خلف هاتينالعينين نصف

المغمضتين ، يشعر ويستطيع أن يفهم امرآ ما . اضطر في البدايــة للتفكير بأنهم عصبوا عينيه ، وربما ثبتوا جسده بالجص ، وأنــه موجود في حجرة معتمة وصامتــة ، إلا أن شخصاً ما سيأتي حتماً ، ويشعل النور ويخلصه . كان عليه أن يثق بوالديه لكي يخرجاه من هناك . لكن الزمن أخــذ يمضي ، دون مقياس ممكن ، دقائق أو ساعات أو أيام في الظلام والصمت . كان الطفل يصيح فلا يسمع حتى صوت صرخته . وسط هذا الهلع البطيء ، المتعذر الإفصاح عنه ، راح دماغه يعمل ويبحث عن التفسير . هل دفن حياً ؟ لكن لم يعد لديه حتى ذراع يشدها كي يلمس غطاء النعش فوقه. هل حدثه قلبه للحظة بالحقيقة ؟ ورينيه ، هل حدثه قلبه بذلك وهو مقيد في صندوق السيارة ؟ كان يشعر بإهتزازات الطريق ، يتقلب على جنبه ، ينحشر في زاوية حقيبة ، يلمس بأنامله غطاءً بالياً . هل كان يتصور بروفيل السائق خلف مقوده ؟ واللحظة التي سينزل فيها ، بعد أن يركن السيارة في زاوية غابة منعزلة ، ويقوم بصفق الباب ، ويقترب من من الصندوق ويفتحه ؟ في البداية شبكة ضوء ، ثم تتسع الشبكة ، ينحني وجه الرجل فيعلم رينيه عندئذ ، بيقين كلي ، أن الأسوأ سيبدأ ولن ينقذه شيء من ذلك . يتذكر حياته الطفولية السعيدة، ووالديه اللذين يحبانه ؛ والرفاق، والهدية التي أحضرتها له الفأرة حين سقط سنه الأوسط ، ويدرك أن هذه الحياة تنتهي هنــا ، إلى هــذه الحقيقــة

الفظيعة والأكثر واقعية من كل ما سبقها . كل ما حدث من قبل لم يكن سوى حلم وهــا هي اليقظة ، هــذه الحجرة المربوط فيها ، وصليل المفتاح في قفل الصندوق وشــبكة الضوء التي ارتسم عليها وجه الرجل الذي سيقتله . تلك اللحظة ، هي حياته ، الحقيقة الوحيدة في حياته ، ولم يعد أمامــه إلا الصياح ، الصياح بأقصى طاقتــه ، صياحاً لن يسمعه أحد أبداً .

- ٢٣ -

قــرر باتريك بعــد العصرية تنظيم جلســة استرخاء جديدة . قال : « لكي تحاولوا تفريغ رؤوسكم » لكن نيكولا لم يفلح بتفريغه وأحس ، رغم عينيه المغمضتين ، أن الآخرين حوله لم يفلحــوا بذلك أيضــاً . كانوا جميعــاً يخشون ، وهم ممددون على الأرض وأعضاؤهم مشتتة ، أن يشابهوا الطفل الميت . أخذ باتريك يكلمهم مثل المرة الماضية بصوت هــادىء ، ويطلب أن يرتاحوا ويحسوا بالثقل : الثقــل ، ويختفوا في الأرض ، وأن يدعوا أنفسهم يغورون فيها . راح يسمي أعضاء الجســد التي عليهــا أن تتثاقل ، عضواً تلو آخر ، لكنهم شعروا هــذه المرة بالخوف لسماع أسمائهــا وحسب ، وتخيلوهــا مُعَذَّبَة . عنــدما كان باتريك يقول ذراع ، ربــلة ســاق ، عمود فقري ، أخمص القــدمين ، إحساس بالدفء في البنان ، فإن صوته ، بصبر وحنان ، يلفهم بعذوبــة ، ويود طمأنتهم ، وإخبارهم أن جميع هــذه الأجزاء منهم هي أصدقاء ، تعين على منفعتهم ، ومع ذلك كانت العضلات تتشنج ، وكل واحدة منها متيبسة ومنقبضة

ومتقلصة ، كما هي الحال حين تهاجمون من كل الجهات وحتى داخل انفسكم . كان باتريك يطلب التنفس بهدوء وعمق وانتظام ، وترك الموجة تملأ وتفرغ البطن مداً وجذراً ، لكن الهواء كان يتناقص ، متقطعاً كما في حلق طفل مخنوق . اخذ الدم يدق في الصدغين ، والأصابع تتشبث بالأرض . صار ضجيج غريب ، عصي على التحديد ، يدور في الآذان . صدمات صماء ، صليل يصدر دون شك عن جهاز التدفئة الذي تمدد نيكولا قربه لكنه يدفع أيضاً للتفكير في سيارة تسير بأقصى سرعة فوق قن دجاجة أو فوق شرطي نائم . كان والد نيكولا يحب هذا التعبير ؛ فيجعله يضحك ، وهو احد الأشياء النادرة التي تجعله يضحك : فكرة المرور بعجلاته فوق شرطي نائم . كانت السيارة ترتج داخل نيكولا ، في هذا المشهد المظلم والوعر ، المليء بالخداع والمصائب ، الذي في قاعه تتلاطم السوائل الناتجة عن دمل هش لم يكن يعرف اسمه . راحت تشق لنفسها طريقاً في جسده ، تجري كأنها على طريق متعرجة بين هذه الأشياء الدافئة واللزجة التي يحتويها بطنه ، تخترق طوق الحجاب الحاجز ، حيث يسمره ثقل يكاد لا يحتمل في الأرض ، تصعد في شعب الرئتين المزروع بالمغاور نحو حلقه ، توشك على الخروج من فمه ، ويوشك أن يبصقها مع الحمولة الكريهة والمتأرجحة لصندوقها . كان نيكولا يسمع ، وهو ممدد قريباً جداً من النافذة ، تحت جهاز التدفئة الساخن ، المحرك يشخر بقوة

اكثر فأكثر ، واقرب فأقرب . كان يرى السيارة تقترب من أسفل ، كما عند صاحب المرآب حين يرفعها على العربة الرافعة . كان كل هذا المعدن الأصهب ، المدد بالإحماء ، يوشك أن يمر فوقه ، وسَحْبٌ من الزيت والدم تنسكب عليه مثل العصارات التي يوقع بها عنكبوت فريسته حية . أخذت العجلات تصر على الثلج وراء النافذة . توقف المحرك ، وسمعوا قرقعة باب السيارة ، ثم باباً آخر . طلب باتريك أن يواصلوا ، وألا يعيروا انتباهاً ، لكن لم يكن بوسع أحد المتابعة ، كان عدة أطفال قد نهضوا للتو ، راحوا يفركون عيونهم كأنهم خرجوا من كابوس ، أخذوا ينظرون عبر النافذة إلى الشاحنة الصغيرة التي غادرها الشرطيان منذ هنيهة . بدأا يطرقان باب الشاليه الآن .

فكر نيكولا : « انتهى الأمر : جاءا لأجلي » بحث عن عيني هودكان ، تراوده الفكرة المجنونة في أنه يمكنهما الفرار سوية قبل أن يقعا في الشرك ، لكنه تذكر أنه محتجز في العنبر . ها هي المعلمة تستقبل الشرطيين الآن ، أصعدتهما إلى المكتب الصغير الذي كان مملكة نيكولا حين لم تكن حياته قد انقضت بعد في الفضائح . نادت من أعلى على باتريك وماري آنج كي يأتيا أيضاً ، وأكد باتريك على الأطفال أن يلتزموا الهدوء في غيابهما . لم يكن أحد يفكر في الضجيج . كان كل واحد يمكث مسمراً ، دون أن يقول شيئاً ، في

الوضع الذي فاجاه فيه وصول الشاحنة الصغيرة . كانوا يشنفون آذانهم ، آملين عبثاً سماع ما يقال في المكتب الموصد للمرة الأولى منذ وصولهم إلى الشاليه .

سأل أخيراً أحدهم بصوت يعوزه الاطمئنان : « عما تظنهم يتكلمون ؟ » أجابه آخر مستخفاً : « عما تريدهم ان يتكلموا ؟ يجرون تحقيقهم ، عجباً ! »

هذا التبدل اطلق الألسن . قال مكسيم ريبوتون بهيئة متكبرة إن والده تعرض لخطر الموت على يد الساديين . سأل أحدهم عما تعنيه كلمة سادي فشرح مكسيم ريبوتون انه ينطلق هكذا على الناس الذين يرتكبون هذا النوع من الجرائم : اغتصاب وقتل الأطفال . إنهم وحوش . لم يكن نيكولا يعلم ماذا يعني الاغتصاب ، ودون شك لم يكن الوحيد. لكنه لم يتجرأ على السؤال وخمن على كل حال أن لهذا علاقة بشيء دون اسم بين ساقيه ، وأنها حالة تعذيب بخصوصه ، الأسوأ من كل الحالات ، ربما تقوم على قطعة أو اقتلاعه . كان مندهشاً من الثقة التي يعالج بها مكسيم ريبوتون ، البليد عادة ، هذه المسائل . كان يردد « متوحشون ! » بهزء شديد ، كأنه هو ووالده قبضا على أحدهم ويستعدان لتعذيبه بدورهما قبل قطع رأسه . كانت الظروف تظهره ، في غياب هودكان ، من طراز نجم ، يتكلم بصوت مرتفع ، يروي حكايا مختلفة عن أطفال مخطوفين

ومغتصبين ومقتولين ، كان يقراها في صحيفة والده ، وهي صحيفة خاصة لم يكن يطرح فيها على حد زعمه إلا ذلك .
كان يبدو أن « الرجال الأشرار » الذين يتكلمون عنهم في في منزل نيكولا بإصرار قلـق لكنه مراوغ ؛ دون أن يحددوا إطلاقاً بماذا يتبدى شرهم ، هم الموضوع الأساسي لمحادثة آل ريبوتون ، أكثر من شوبير وشومان والبناطيل المتسخة .
ويوم طرح هذا الموضوع أخيراً على البساط ، انتصر الكسول الماكر مكسيم .

اثناء هـذه المناقشة ، كان نيكولا يمكث منكمشاً على عتبة الرواق ، اعترته الدهشة فجأة لرؤية هودكان يهبط الدرج ، ويتجاوزه بسرعة حتى باب المدخل . تلاقت نظراتهما . نظرة هودكان مقهورة على نحو مرعب ، كأن حياته وأكثر ايضاً تتعلق بصمت نيكولا . خرج من الشاليه دون ضجة .
كان نيكولا وحده قد لا حظ مروره . حين كان هودكان يغلق باب المدخل خلفـه ، انفتح بـاب المكتب وسمعوا أصوات الشرطيين والمعلمة والمشرفين الذين نزلوا الدرج بدورهم .
سكت ريبوتون والآخرون .

« تحسر أحد الشرطيين : تحقيق من هذا النوع ، هو عمل نملة . نبحث ونبحث ، ولا نعرف في أي اتجاه ، وحين نعثر عليه ، فهذا أغلب الأحيان لأن الرجل يجن ويرتكب حماقة » كان الخمسة جميعاً يبدون مرهقين . نظروا من

الرواق إلى القاعــة التي يمكث فيها الأطفــال ، الصامتون الآن ، والشرطي الآخر ، ذاك الذي كانت لديه في المقهى ، وهو يتكلم عن المفقودين ، هذه النوبة من التمرد العاجز ، هز رأسه أيضاً وتمتم : « صبي في هذه السن ... أيتها القديسة العذراء ، صلي لأجلنــا » أيدته المعلمة مغمضة عيناها ، جفناها مشدودان ، صارت هذه عادة عندها منذ الصباح . ثم انطلق الشرطيان . نظر نيكولا والآخرون عبر النافذة إلى شاحنتهما الصغيرة تتحرك على الأرض المنبسطة المغطاة بالثلج ، وتدلف بين أشــجار الصنوبر على الدرب المفضي إلى الطريق . لم يكن أحد يعبره إلا قاطني الشاليه ، لكنهما رغم ذلك أضاءا الغماز قبل الإنعطاف .

- ٢٤ -

لم يشتبه أحد بغياب هودكان إلا نيكولا . لم يكن بوسعه سوى الخوف ، لكنه كان يخاف ذلك على نحو مرعب . حين تناقشا الليل السابق عمـا دعـاه مخطط حملتهما ، كان هودكان يفكر ، أو يتظاهر بالتفكير ، أنه يستطيع إيجاد أدلة إذا درس بالتفصيل جوار الشاليه ــ مع أن ارتفاع الثلج المتساقط بلغ متراً منذ اختفاء رينيه ــ أو إذا سأل بهيئة لا مبالية سكان القرية إن كانوا قد شاهدوا خلال الفترات الأخيرة شاحنات صغيرة مجهولة . لم يكف نيكولا القلق عن نصحه بالحذر . ود لو أن هودكان لا يسأل أحداً ، حتى بهيئة لا مبالية ، وأن يكتفيا كل الليالي، تحت حجة التحقيق، بمتابعة هذه المحادثة الهامسة والسرية ، والمستشارة بتهديد ما كان ليضير بشيء بالنسبة له بقاؤه متخيلاً . الآن وقد حدثت المأساة ، ماذا سيكتشف هودكان ؟ ماذا سيحدث إذا لم يأت خلال ساعة أو هذا المساء ؟ إذا اختفى بدوره ؟ إذا عثروا على جثته مقطعة الأوصال في الثلج ؟ سيكون نيكولا مذنباً للزومه الصمت . أما إذا تكلم في الوقت المناسب ، أي في الحال ، فربما يكون لديه حظ باستدراك الأسوأ .

اخذ الليل يحل ، واضيئت المصابيح . راح نيكولا يحوم حول باتريك ، باحثاً عن فرصـــه ليكلمه سراً ، لكن كلما سنحت له يتردد ايضاً ويتركها تمر . تخيل أنهم سينسحبون جميعاً إلى خارج الشاليه ؛ كل واحد بدوره . كل واحـــد ينطلق لوحده ، لوحـــده حتماً ، بحثاً عن السابق ، وفي النهاية ، فإن نيكولا هو الذي سيلفي نفسه وحيداً ، وحيداً بحق ، في انتظار ان يقرر من قتلهم جميعاً الدخول للانتهاء منه . سينظر إلى سقاطة باب المدخـــل التي تنزل ببطء ، وها هي اللحظة ستحين لمواجهة هذا الرعب الذي ليس له اسم، والذي كان يحسه منذ الأزل يتجول حوله ،وسيداهمه الآن .

عندما جاء موعد وضع المائدة لأجل العشاء ، تذكرت المعلمة هودكان المحتجز وصاحت رافعة رأسهافي قفص الدرج ان بوسعه المجيء الآن . اخذ نيكولا يرتعش ، لكن حصل اقل ما كان يتوقعه : نزل هودكان بهدوء وانضم إلى الآخرين كأنه لم يغادر العنبر عند العصر : متى وكيف عاد ، لم يعرف نيكولا ذلك مطلقاً .

جرى العشاء في جو مفجع لم يحاول أحد مقاومته ، ثم ذهبوا للنوم أبكر من المعتاد . قال باتريك : « حاولوا النوم جيداً يا شباب ، غداً نهار آخر » توجه نيكولا نحو

الحجرة التي باتت حجرته ، لكن المعلمة قالت له إنه لم يعد مريضاً وبمقدوره العودة للعنبر .

حين ذهب لاستعادة منامته المطوية تحت وسادة الأريكة، تأخر لبرهة في المكتب الذي لم يعد مكانه منذ زيارة الشرطيين. منحه الضوء اللطيف لمصباح طاولة السرير تحت واقيته البرتقالية الرغبة بالبكاء . لكي يتمالك نفسه ، عضعض معصمه ، المعصم الذي عقد باتريك حوله السوار البرازيلي. الممزق قليلاً الآن . أعاد التفكير في يوم نقل مسكنهم قبل عام ونصف . كان قرار مغادرة المدينة التي أمضى فيها طفولته قد اتخذ بسرعة فائقة ، وبعجلة لم يفهم شيئاً منها . راحت والدته تردد على مسامعه بإصرار عنيف أنه سيكون سعيداً أكثر بكثير هناك حيث يذهبون ، وانه سيألف فيه كثيراً من الرفاق الجدد ، لكن عصبيتها ، وثورات غضبها وشهقاتها ، وطريقتها في إزاحة حجاب شعرها الكئيب بيدها ، كأنه عدو ، والذي لا يلبث أن يعاود السقوط في الحال على وجهها ، كانوا يتركون لنيكولا حظاً ضئيلاً بتصديق هذه الكلمات المطمئنة . كان قد كف هو واخوه الصغير عن الذهاب إلى المدرسة ، وصارت تبقيهما طوال الوقت في المنزل . أما المصاريع فتظل مغلقة حتى نهاراً . كان الفصل صيفاً ، ويختنق المرء في هذا الجو من الحصار ، من الكارثة والسرية . كان نيكولا واخوه يسألان

عن والدهما ، إلا انه كان قد غادر في جولة طويلة ، كما كانت تزعم . وسينضم إليهم في مدينة أخرى وفي شقة جديدة . اليوم الأخير ، عندما حزموا الصناديق التي كان على الناقلين المجيء لإحضارها بعد رحيلهم ، جلس وسط حجرته الفارغة وبكى كما يبكي المرء حين يكون في السابعة من عمره وحين يحدث أمر ما فظيع لا يفهمه . ارادت آمه ضمه إلى صدرها لمواساته ، وراحت تردد بلا انقطاع نيكولا ، نيكولا ، وكان يعلم انها تخفي عنه شيئاً ما وانه لا يمكنه الوثوق بها . اخذت في البكاء أيضاً ، لكن بما أنها لم تخبره بالحقيقة لم يكن بمقدورهما حتى البكاء سوية .

- ٢٥ -

كانت العودة إلى العنبر تصعب كثيراً الحديث السري الذي يحتاج لاجرائه مع هودكان . أين ذهب وماذا فعل ؟ لم يكن قد قطع صمت العشاء الكئيب ، والمعلمة تراقبه بعينيها ، وكان قد آوى إلى الفراش حتى دون أن يغسل اسنانه ، ودون أن يكلم أحداً ، واستدار نحو الحائط في وضعية الوحش الذي من الأفضل عدم إزعاجه . راح نيكولا، المتمدد على السرير تحته ، المتيبس كأنه راقد ، يتساءل إن كان هودكان نائماً أم لا . مضت ساعة على هذا النحو . همس هودكان اخيراً : « نيكولا » وأشار له أن يتبعه وهو يغادر فراشه بهدوء . نزل نيكولا السلم ، ولحقه إلى الممر على رؤوس أصابعه . حين مر أمام لوكا ، انتصب متذمراً « ماذا تفعلان ؟ » لكن هودكان اكتفى بالقول « اخرس ! » بصوت أصم وهو يطل من الباب ، فاعتبر الآخر نفسه المعني بذلك . ابتعدا باحتراس عن العنبر ، متجهين إلى النافذة في صدر الممر . ارتقى هودكان المتكأ بحركة رشيقة ، وظهره متجه نحـو النافذة ، بحيث كان خياله يظهر بوضوح على

الكتل السوداء والبيضاء لأشجار الصنوبر الرازحة تحت الثلج ، بينما بقي وجهه في العتمة . شعر نيكولا بالخوف من هذه العتمة .

« تمتم : إذن ؟

ـ قال هودكان بصوت حيادي : أليست رينو ٢٥ رمادية ، سيارة والدك ؟ »

أدرك نيكولا أن ما يجمد جبهته هو ما يسمى في القصص المرعبة التي كان يقرأها خفية عرق بارد . لم يجب .

استطرد هودكان : « أجل ، إنها رينو ٢٥ رمادية ، أتذكر جيداً . قبل قليل ، حين جاء الشرطيان ، نزلت من العنبر وسمعت ما كانا يقولانه خلف باب المكتب . تكلما عما حدث لرينيه وهو ما أفضّل ألا أرويه لك . ما زلت مريضاً منه . وبعد ذلك سألا هل شاهد أحد رينو ٢٥ رمادية في المنطقة . ردوا فرادى بالنفي ، ولم يضطروا للتفكير بالأمر ، أو لم يعيروا انتباهاً حين جاء والدك . فكرت عندئذ ، ولما رأيت أنهما على وشك المغادرة ، نزلت بسرعة قبلهما ، وذهبت أنتظرهما على الطريق » سكت هودكان بضع لحظات ، ثم أضاف :

« أخبرتهما بكل شيء » .

سكت من جديد . لم يحرك نيكولا ساكناً . راح ينظر إلى هذا الوجه المعتم .

تغيرت عندئذ نبرة هودكان . بدأ يبرر سلوكه الآن دون أن يقصد التنازل عن سطوته . « همس : اسمع يا نيكولا . كان ينبغي ذلك . أعلم ، لقد وعدتك ألا أتكلم عن الأمر ، لكن والدك في خطر . لأجل ذلك بالتأكيد يبحثان عنه ، ولأي سبب تظن ؟ ربما يكون في هذه اللحظة سجيناً عند التجار . ربما قتلوه الآن ، قال بعنف مفاجيء ، كأنه يبغي هز نيكولا . لكنهم إذا لم يقتلوه ، فما يزال يوجد وقت للعثور عليه . وليس نحن من سيقوم بذلك مقتفين آثار الخطى على الثلج . لسنا فريق الخمسة يا نيكولا ، هؤلاء الرجال متوحشون . اصغ إلي يا نيكولا ، تابع متوسلاً تقريباً : إذا وجدت فرصة لإنقاذ والدك وتركناها تمر ، ألا تظن أنك ستلوم نفسك على ذلك طيلة حياتك ؟ إذا مات بخطئك ؟ تصور حياتك بعد ذلك » .

توقف هودكان عن الكلام ، وهو يرى أنه لم يكن لمرافعته أي تأثير على نيكولا الذي ظل مذهولاً . هز كتفيه بعد أن أعيته الحيلة : « على أي حال ، هذه هي الحقيقة » ثم تاركا نفسه ينزلق عن متكأ النافذة ، مد يده لكي يصافح يد نيكولا .

تمتم بعذوبة متأسفة « نيكولا ...... » . تراجع نيكولا خطوة لئلا يلامسه . تابع هودكان « نيكولا ، أعلم ... » داعب شعره ، وأراد جذب رأسه إلى كتفه ، فلم يقاوم نيكولا هذه المرة . كان يشعر ، وهو واقف ومضموم إلى صدر هودكان الذي ظل يداعب شعره ويردد اسمه برفق ، كان يشعر بدفء جسده الضخم ، الأبيض والأملس ، الأملس مثل وسادة عريضة يبرز منها وحدها هذا الشيء القاسي ودون اسم الذي أخذ يضغط على بطنه . أما هو فعلى العكس كان متيبساً تماماً ، متشنجاً ، كأنه متجمد في الجليد ، لكن كان طرياً وفارغاً بين ساقيه . لم يكن يوجد شيء هناك ، سوى الفراغ ، منطقة مفقودة . راح ينظر بعينين محدقتين خلف كتف هودكان ، خلف النافذة ، إلى الكتلة المعتمة لأشجار الصنوبر التي تنحني تحت الثلج وخلفها أيضاً ، السواد .

— ٢٦ —

بعد عشرين عاماً ، في إحدى ليالي كانون الأول ، اجتاز نيكولا العائد من الحدائق ميدان تروكاديرو الخالي وتناهى إلى سمعه نداء بإسمه . شاهد رجلاً طويلاً جداً وبديناً جداً ، جبل إنساني حقيقي ، جالس على مقعد صخري عند قاعدة تمثال مذهب ، يمثل بطلاً من الميثيولوجيا الإغريقية. توجد بجانبه على المقعد زجاجة نبيذ أحمر ورغيف خبز اسطواني مصرور في ورقة مجعدة يلتمع منها نصل سكين . كانت جمجمة الرجل حليقة ومحدبة ، ولحيته طويلة وسوداء . كان يبدو متشرداً وغولاً بملابسه المشوهة التي يتنبأ المرء بها قذرة . تعرف نيكولا على هودكان بالفورية التي تعرف فيها هذا الأخير عليه . ردد هودكان اسمه بنبرة قوية ساخرة ، وبصوت هازىء وأبح ، محمل بالتهديد . ظل نيكولا ساكناً على بعد عشر خطوات منه، يده متشنجة على قبضة محفظة الكتب ، لا يتجرأ على الاقتراب ولا على الانطلاق جرياً . لقد تساءل طيلة تلك السنوات عما إذا كان هودكان قد صدق حقاً قصة تجار الأعضاء البشرية . كانت

قد راودته احلام يلتقيه فيهـا ، وكانت دومـاً كوابيس ، أمسك هودكان فجأة سكينه ونهض مطلقاً زمجرة . وهـو واقف ، كان أيضاً أكثر طولاً وبدانة ، وكان يعرج . وثب نحو نيكولا ، ذراعاه مشرعتان ، مثـل دب يهاجـم . أدرك نيكولا انه يوشك على قتله ، فأخـذ يركض أيضـاً . كـان يسمعه يزمجر ويلهث خلفه . سبقه إلا انه لم يتجرأ علـى الالتفات إلى الخلف إلا عندما وصل ميدان تروكاديرو حيث تعبر السيارات والناس. كان هودكان قد كف عن مطاردته. راح يتمايل وحيداً وسط الساحة ، أمام برج إيفل المنـار بمناسبة أعياد رأس السنة . اخذ يضحك ورأسه مرفوع نحو السماء بقهقهة قوية وراعدة ، لا يمكن لأي شيء إيقافها، لا نوبات السعال ولا اللهاث الذين كانوا مـع ذلك يهزونه ، وكان يشوب هذه القهقهة انين دون اسم وحقـد مجنون ، كلاهما مسجونان طوال هذه السنوات ويتناهشان في عمق حلق هودكـان . سمع شـرطي في ميدان تروكاديرو هـذه القهقهة التي كانت تثيرالقشـعريرة ، فألقى نظرة على المتشرد الذي يتمايل في الساحة ، ونظرة أخرى على المـار اللاهث الذي فرّ منه لتوه . « هل أزعجك ؟ » سأل آملاً أن يجيب المار بالنفي وأنه لم يحدث ما يدعو للتدخل . لم يرد نيكولا بشيء . ظل لبرهة ينظر إلى هودكان ، وهو يضحك حتى الموت تحت النجوم اللامعة . ثم ابتعـد في الليل ومحفظـة الكتب بيده .

— ٢٧ —

عثر على نيكولا في الصباح منكمشاً على نفسه في الممر عند أسفل النافذة المفتوحة التي تدخل منها ندف الثلج متطايرة مع الريح . كانت أسنانه تصطك ، وليس نائماً ، ولا يتكلم . وكما لو أن الحركات المحتملة قد تخلخلت ،حمله باتريك من جديد بين ذراعيه حتى أريكة المكتب . أبدت المعلمة هذه المرة غيظاً يفوق الحنان . طبعاً كان نيكولا مسرناً وليس بوسعها لومه لأنه اضطرب في يوم كهذا ، لكنها هي أيضاً ، كانت مضطربة ومنهكة . لم تكن تنوي المشاركة في النزهة الطويلة التي يخطط لها باتريك لسد فراغ النهار، وكانت تأمل الإستفادة منها لترتاح وحدها في الشاليه وتستغني تماماً عن واجب رعاية طفل مريض ومتقلب الأطوار . لكن بما أن نيكولا لم يكن قادراً ببداهة على المشي، تركته مؤقتاً يأخذ مكانها على أريكة المكتب وانسحبت الى حجرتها . غادر الصف مع باتريك وماري ــ آنج . بقيا وحيدين .

مضت ساعات . كان نيكولا قد جذب الغطاء فوق وجهه وراح ينتظر دون أن يحرك ساكناً ودون أن يشعر بشيء تقريباً . ود لو يجد ثانية الحرارة العجيبة للحمى ، وشرنقته المنسية ، إلا أنه لم يكن مصاباً بالحمى ، بل بالبرد والخوف . لم تأتِ المعلمة لتجلب له ما يشربه ، ولا لتكلمه. لم يوجد غذاء . كان عليها النوم . لم يكن يعرف حتى أين حجرتها . .

اضطر هو ايضاً أن يغفو ، لكن جرس الهاتف أيقظه . كان الظلام يخيم. مع ذلك لم يعد الآخرون بعد . نظر نيكولا إلى الهاتف يرن وهو في متناول يده . كانت السماعة ترتعش بخفة على مسندها . استغرق ذلك وقتاً طويلاً . انتهى الرنين ، ثم عاد من جديد . دخلت المعلمة ورفعت السماعة ، بعد ان قالت لنيكولا إنه كان بمقدوره القيام بذلك رغم كل شيء . كان وجهها ناعساً ومتورماً وشعرها مشعثاً .

قالت : « أجل ؟ ... أجل ، أنا هي ... أجل ، إنه معي بالتأكيد » .

رمقت نيكولا بنظرة ، دون أن تبتسم . ثم قطبت حاجبيها . « لماذا ؟ هل حدث أمر ما ؟ .. حسن ... » .

قالت لنيكولا وهي تخفض السماعة : « هل تسمح أن تتركني دقيقة من فضلك ؟ » نهض نيكولا وخرج ببطء ،

دون أن يبارح النظر إليها . « عليك الذهاب إلى الأسفل ، ستكون أفضل » . أضافت حين اصبح في الممر وأغلقت الباب . تقدم نيكولا حتى الدرج وجلس على الدرجات الأولى ، محتضناً ركبتيه بين ذراعيه . لم يكن يسمع شيئاً مما يقال في المكتب ، ولعل المعلمة اكتفت فقط بالإصغاء إلى مخاطبها . فكر لبرهة في النهوض ثانية والاقتراب على رؤوس أصابعه لكنه لم يتجرأ . عندما أسند كتفه على درابزين الدرج ، قرقع الخشب بجفاف . على بعد أمتار منه ، كان شعاع ضوء برتقالي يتسرب من تحت باب المكتب. بدا له أنه سمع صوتاً مخنوقاً ، كأنه نحيب يحاول المرء كبحه . استمرت المحادثة زمناً طويلاً دون أن يستطيع التقاط أي شيء آخر منها . كان كل شيء يتلاشى في بئر الصمت . وبعيداً جداً في القاع يلتمع ماء اسود .

سمع اخيراً صوت انفصال نهاية المكالمة . لم تخرج المعلمة من المكتب . لا بد أنها كانت واقفة ، في الوضع الذي تركها عليه ، يدها ما تزال مستندة على الجهاز ، تغمض عينيها بقوة ، وتتمالك نفسها عن العويل . أو انها تمددت حينئذ على الأريكة وأخذت بعَضّ الوسادة التيم ا تزال تحمل أثر جمجمة نيكولا . حين تخيلها قبل بضعة أيام تتبلغ على الهاتف خبر موت والده بحادث ، أبعدته حالاً . كما فعلت لتوها ، لكنها خرجت بعد ذلك من المكتب واتجهت

نحوه وضمته بين ذراعيها . راحت تغمـره بدموعها وتردد اسمه . كان مشهداً مخيفاً، لكنه ، في غاية اللطف، ولا يمكن أن يحدث الآن. صارت تخاف الآن الخروج ، تخاف رؤيته، تخاف مخاطبته بكلمة لا بد لها أن تخرج ، فهي لن تظل مع ذلك طيلة حياتها في هذا المكتب . راح نيكولا يتخيل بمرارة حزنها ، والعبء غير المحتمل الذي يرهقها منـذ أن أغلقت السماعة . لم تكن تحرك ساكناً ، وهو كذلك . لا بد أنها كانت تشتبه بوجوده قريباً جداً ، وأنه ينتظرها . لو أنه طرق الباب، لصرخت به ألا يدخل ، ليس الآن ، ليس بعد، ولربما أقفلت الباب . أجل ، كانت ستعتزل بدلاً مـن أن تبدي له وجهها وترى وجهه . قد يكون سهلاً ، لو أراد ، أن يسبب لها الخوف . يكفيـه أن يتفوه بكلمة في صـمت الممر . أو أن يأخـذ في الدندنة . دندنـة خفيفة ، بريئـة ومستمرة ، محسوبة . لن يكون بمقدرهـا احتمال ذلك ، وستبدأ بالعويل خلف الباب . لكنـه لم يدندن ولم يتفـوه بكلمة ولم يحرك ساكناً . كان عليها ، وليس عليه ، أن تأخذ على عاتقها عاقبة الأحداث ، ما دام يتوجب أن توجد عاقبة، وأن تتحقق الحركات ، والكلمات المنطوقـة . على الأقـل الكلمات غير المؤذية ، الكلمـات التي لا تصـلح إلا في الغش والتصرف كأن الحياة مستمرة وكأن الاتصال الهاتفي لـم يحدث . لعلها كانت ستتخلص من الورطة على هذا النحو ، وتتصرف كأنه لم يحدث . ستنتظر أن يتصلوا مـرة أخرى

ويرد شخص آخر اكثر شجاعة . سيكون باتريك . لن يفهم الشرطي الذي كان قد هاتف شيئاً . سيقول إنه تكلم مع ذلك إلى المعلمة ، واعلمها بالأمر ، لكنها ستهز رأسها وتغمض عينيها ، ستواجه بالنفي كل بديهة ، وأن اخرى اضطرت للرد بدلاً عنها ، مدعية أنها هي .

أقبل الليل . كان يشاهد الثلج يتساقط على اشجار الصنوبر من نافذة المحادثة مع هودكان . انبعث ضجيج من الأسفل . كان الصف يعود . اضيئت المصابيح ، وصياح وضوضاء . لابد أن وجناتهم صارت حمراء متوردة بعد هذه النزهة الطويلة ، وربما نسوا خلال لحظات رعب الأمس ، وسيتقادم يوماً بعد يوم ، ويخف ، وسيغدو عما قريب ذكرى بحرص الأهل على عدم إيقاظها . ستتكلم الأمهات عنها فيما بينهن بصوت خفيض وسيماء متفهمة ومتألمة . أما بالنسبة لنيكولا فهو رعب دائم ، دائم كما هو الآن ، في أعلى الدرج ، ينتظر أن تستجمع المعلمة الشجاعة للخروج .

لقيه باتريك أثناء صعوده جالساً على الدرجات ، في الممر الذي يضيئه فقط مصباح من الأسفل .

سأل بلطف : « ماذا تفعل هنا ياصغيري ؟ ستكون أفضل في مكتبك .

تمتم نيكولا : المعلمة فيه .

ــ آه حسن ؟ ولا تريدك ؟ » ضحك باتريك وهمس :
« لا بد أنها تهاتف صديقها الصغير ! »

طرق باب المكتب شكلياً ، وكما توقـع نيكولا ، سألت المديرة : « من ؟ » بصوت مبحوح . فتحت الباب مادام الطارق هو ولكنها اغلقته ثانية في الحال . فكـر نيكولا أن كليهما الآن صارا معتزلين ، وعما قريب سيغدو الجميـع هكذا ، إلا هو ، وسيحاول كل واحد أن يلقي على جـاره عبء الذهاب لرؤيته ، والتكلم اليه . أيقولون له الحقيقة؟ لا ، لن يستطيعوا . لن يستطيع أحد أن يقول تلك الحقيقة لغلام صغير . لابد لشخص أن يخبره مع ذلك بالامـر . راح نيكولا ينتظر بفضول تقريبا .

ظل باتريك فترة مديدة في المكتـب ، لكنـه امتلـك الشجاعة للخروج ثانيـة والمجيء للجلوس علـى الدرجات بجانب نيكولا . حين امسك معصمه ليفحص حالـة تلـف السوار البرازيلي ، أخذت يداه ترتعشان . قال : «اخبرني اذن ، أهو متين ؟ » وسرعان ما ذعر من الصمت ، فبـدأ يروي قصة عن الجنرالات المكسيكيين وعـن بانشو فيـلا التي لم يفهم منها نيكولا شيئاً ، والتي لم يحاول أن يفهمها غير أنها كانت تتوخى ولا بد الطرافة لأن باتريك كان يضع علامات الترقيم بضحكات قصيرة ترن اصطناعاً . راح يتكلم

لأجل الكلام ، ويبذل ما بوسعه ، ووجد نيكولا أن هذا حسن من جانبه . لو أنه استطاع ، لقاطعه ونظر في عينيه قائلا إن هذا لطيف لكن لا حاجة لتلك القصص عن بانشو فيلا وأنه يريد معرفة الحقيقة . أحس باتريك ذلك وتخلى فجأة عن القصة ، التي ما زالت بعيدة عن أن تنتهي . دون أن يسعى لتمويه إخفاقه ، تلقف الهواء كأنه غريق وقال بسرعة « اسمع يا نيكولا ، ثمة مشكلة في منزلك ... هذه خسارة بالنسبة لرحلة التزلج ، لكن المعلمة وأنا أيضاً ، نعتقد أنه سيكون من الأفضل أن تعود إلى المنزل ... أجل سيكون هذا أفضل ... أضاف لكي يخفف وطأة الصمت .

ـ تمتم نيكولا : متى ؟ كأنه السؤال الوحيد الذي يستحق أن يثار .

ـ أجاب باتريك : غدا صباحا .

ـ هل سيأتي أحد في طلبي ؟ »

تساءل نيكولا إن كان يفضل أن يكون الشرطيان أو لا يفضل .

« قال باتريك : لا ، سأصحبك أنا . هل يناسبك أن أكون أنا ؟ نتفاهم سوية دون صعوبة . »

وهو يحاول الابتسام ، شعث شعر نيكولا الذي زم شفتيه لكي لا يبكي مفكراً بملوك النفط . لا بد أن باتريك

شعر بالراحة لانه اضطر فقط للإجابة على أسئلة حول تنظيم الرحلة وليس حول سببها . لعله كان يستغرب أن نيكولا لم يظهر كثيراً من الدهشة . رغم ذلك ، سأل الطفل بصوت غير مسموع تقريبا : « أهو خطير ، ماحدث في منزلي ؟ » فكر باتريك وقال : « أجل ، أعتقد أنه خطير . أمك ستشرح لك » غض نيكولا بصره وأخذ ينزل الدرج ، لكن باتريك استوقفه ، وشد على كتفه بقوة وحاول الابتسام قائلا : « كن شجاعا يا نيكولا »

- ٢٨ -

أثناء العشاء الذي لم تظهر فيه المعلمة ، استأنف مكسيم ريبوتون ، الذي لم يكن يود إضاعة موضوع محادثة جديد ، الكلام عن قتلة الأطفال الساديين ، وعن المعاملة التي كان هو ووالده من أنصار معاقبتهم بها . أمره باتريك بجفاف أن يصمت . أكل نيكولا ووجهه مطرق في صحنه قشدة الطعام الذي كان الطباخ قد أعده لتجديد قوى المتنزهين . في النهاية ، اقترح باتريك لكي يشكروه أن يصيحوا : « هيب ، هيب ، هيب ، هورا ! » ثلاث مرات ، وصاح نيكولا مع الآخرين ثلاث مرات : « هيب هيب هيب هورا ! » .

سأل باتريك بعد ذلك عما إذا كان بوسعه النوم في المكتب الليلة الأخيرة . تردد باتريك قبل أن يرد بالموافقة ، وفهم من نيكولا أن هذا كان بسبب الهاتف . صعد للنوم قبل الآخرين ، دون أن يقول لهم تصبحون على خير ، ودون أن يلفت الأنظار ، إلا هودكان الذي يتابعه بعينيه منذ بداية السهرة ، لكن عيني نيكولا تتهربان .

لم يكن احد يعلم ظاهرياً انه راحل .

جاء باتريك بعد ربع ساعة لينضم إليه ويخبره انهما سيسافران باكراً صباح اليوم التالي . لابـد من النـوم جيداً . هل كان يريد قرص منوم لمساعدته على ذلـك ؟ رد نيكولا بالإيجاب وتناول القرص مع جرعة ماء . إنها المرة الأولى التي يتجرع فيها منوماً . كان يعلم أن المرء قد يموت إذا ابتلع كثير منها معاً . خلال فترة تبديل المسكن والغياب الطويل لوالده ، فتش كل المنزل عن الأنبوبة التي تستخدم لهذا الغرض . لكنه كان قد اخذها معه ولا بد ، أو أن امه صفتها في درج مقفل بالمفتاح .

جلس باتريك على حافة السرير ، كأنه يريد الكلام ، إلا انه لم يجد الكلمات . لن يجد احد من الآن فصاعداً كثيراً من الكلمات ليخاطبه بها . صار باتريك يقتصر على الحركات البائسة التي على منوالها منـذ قليل ، اليد تضغط على الكتف ، ونصف الابتسامة الحزينة والعطوفة . لم يتجرأ على تكرار « كن شجاعاً » مدركاً على الأرجح مقدار ريائها . بقي دقيقة جالساً دون أن يقول شيئاً ، ثم نهض ثانية . كان قد جمع وحشـر في حقيبة بلاستيكية أمتعـة نيكولا الجديدة ، الأمتعة التي اشتراها له من المتجر الكبير . قبل أن يطفيء المصباح ويخرج ، وضع الحقيبـة عنـد قائمة

السرير ، جاهزة لليوم التالي . تذكر نيكولا حقيبته الخاصة، المحضرة بعناية قبل ثمانية ايام لأجل رحلة التزلج . لا بد أن الشرطة عثرت عليها في صندوق السيارة، وبالتأكيد فتشتها. تساءل إن كانت قد نجحت في فتح خزنته ، وما الذي اكتشفته فيها .

- ٢٩ -

لم يدرك نيكولا انه نائم ، لكنه استيقظ قبل الفجر . لم يتعرف إلى الحجرة حوله وظن في البداية أنها حجرته في المنزل . كان الخوف يعتريه لأنهم خلال رقاده ، أوصدوا الباب واطفؤوا النور في الممر ناكثين بالوعد الذي يقطعونه له كل مساء . تمتم : « مـامـا » ، وكاد ان يرددها اقوى ، ويصيح ، لكنه تمالك نفسه وتذكر كل شيء دفعة واحدة . ظل ساكناً لبرهة ، آملاً أن يستمر الليل دوماً . هكذا يأمل ولا بـد المحكومون بالاعـدام . كانت عيناه تعتادان الظلام وتساءل إن لم يكن يوجـد شيء ما مخبأ في الغرفـة يمكنه بطريقة أو بأخرى مساعدته . يوقف جـريان الساعات ، يعيق الوصول إليه ، ويجعله يختفي . لكنه لم ير شيئاً . سيكون التواري تحت السرير غير مجدي . الإتصال هاتفياً ، لكن من يدعو لنجدته ؟ ماذا يقول ؟.

حين اقترب من النافذة ، تبين أنها مجهزة بقضبان . كان قد نام هناك ثلاث ليالٍ دون أن يلاحظها . أم أن احداً

قد ركبها لتوه أثناء رقاده ، ليتأكد أنه لن يفر ؟ كانت تبدو مع ذلك قديمة ، ومغروسة عميقاً في الاسمنت . إنه هو الذي لم يكن قد أعارها انتباهاً .

لا مخرج آخر سوى الباب . فتش في حقيبته البلاستيكية وارتدى متلمساً ملابسه . وهو يلبس القميص، انبعث الحفيف المألوف والمشؤوم للإعلان الذي يحمل صورة رينيه . فتح أدراج المكتب ، بحثاً عن نقود تسهل فراره ، لكنه لم يجد شيئاً . جذب الباب دون ضجة وخرج .

كان مصباح مضاء في القاعة السفلى ؛ وحده ينير الدرج قليلاً في أعلاه حيث تسمر مرة أخرى أيضاً . كان باتريك وماري ــ آنج قد نهضا للتو . راحا يتكلمان بصوت خافت جداً ، لكن الصمت في الشاليه بلغ حداً صار معه بوسع نيكولا سماعهما بانحنائه .

قالت ماري ــ آنج « سكر » ورنت الملعقة في الكأس .

استطرد باتريك : « لا يهم كيف ، سيعلم الصبية ذلك بسرعة . ومن ثم حين يعرف سكان القرية أنه هنا ، وهم على هذه الحال ، لا أحد يعلم على ماذا يقدمون .

ــ قالت ماري ــ آنج برفق : هذا ليس خطأه مع ذلك أطلقت تنهيدة مديدة وتمتمت « يا للهول ، يا إلهي ، يا للهول ... »

سمع نيكولا نحيباً ، ثم باتريك أيضاً : « كما تعلمين ، ما حصل لرينيه هو أمر فظيع ، لكني أظن أني مازلت أشفق عليه كثيراً . هل تتصورين تجرجره هـذا ؟ ماذا ستصبح حياته ؟

ســاد صمت ، ثم قالت ماري ـ آنج دون أن تكف عن النحيب وعن تحريك ملعقتها : « هـذا حسن أنك أنت من يصحبه . أتظن أنك ستكلمه ؟

ـ اجاب باتريك بصوت أصم : لا . لا أستطيع ذلك .

ـ إذن ، من سيخبره ؟

ـ لا أدري . أمه . كان عليها أن تتوقع ذات يوم شيئاً من هذا النوع . سبق أن كانت لوالده إزعاجات منذ عامين . لم يكن الأمر خطيراً جـداً ، لكن رغم كل شيء سيرة قذرة جـداً » .

صمت أيضاً ، نحيب ، ثم : « سأذهب لإيقاظه ، ينبغي أن نرحل » .

وجد باتريك نيكولا واقفاً أعلى الدرج ، مرتديا ملابسه كاملة ، وسعى ليقرأ على وجهه إن كان قد سمعهما . لكنه

لم يستطيع ان يقرأ شيئاً على وجه نيكولا ، وعلى أية حال ، ماذا كان ذلك يغير ؟

حين نزلا ثانية ، وضعت ماري ــ آنج قدحها على الطاولة ، مسحت عينيها الحمراوين بمنديل مكور ، وبصمت ضمت نيكولا إلى صدرها بقوة . أعطت أيضاً قبلة قصيرة لباتريك في زاوية الشفتين ، ثم خرجا سوية . كان الوقت ما يزال ليلاً . الجميع نيام في الشاليه . كان قد تساقط بعض الثلج أيضاً ، حيث تنغرس أقدامهما فيه . كانت سحب من البخار تخرج من فميهما ، ومن بياض كامد تقريباً على الكتلة المعتمة لأشجار الصنوبر . حين وصل إلى السيارة ، طلب باتريك من نيكولا أن يمسك حقيبة سفره الصغيرة بينما راح يجلو بيدين عاريتين الزجاج المغطى بالثلج ، ويصب جهده على ماسحتي الزجاج الملتصقتين مع واقية الريح بطبقة جليد رقيقة . عندما انتهى وفتح الأبواب ، أراد نيكولا الصعود في المقعد الأمامي ، كما في المرة الماضية ، إلا أن باتريك رفض : سيسيران على الطريق الرئيسة ، والشرطة تقوم بالتفتيش .

- ٣٠ -

سأل باتريك « أترغب بسماع الموسيقا ؟ » أجاب نيكولا أنه يود ذلك . وهو يمسك المقود بيد واحدة ، فتش باتريك بالأخرى في الصندوق الصغير الذي رتبت فيه الأشرطة . تساءل نيكولا إن كان سيضع ثانية الشريط الذي سمعاه يوم المتجر ، لكنه اختار شريطاً آخر ، أكثر عذوبة وهدوءاً . كان الصوت نائحاً تقريباً ، تصحبه فقط قيثارة، وحتى دون أن يفهم الكلمات الانكليزية ، كان بوسعه أن يتخيل أن الأمر يدور حول سفر في الشتاء ، على طرق مكسوة بالثلج ، محاطة بالنعاس . تمدد نيكولا على المقعد ، صانعاً لنفسه وسادة من الغطاء البالي المهدب الذي كان جديراً بكلب . كاد يسأل باتريك إن كان لديه كلب ، هناك حيث يقطن ، وأيضاً أين يقطن ، وفي أي نطاق تجري حياته، لكنه لم يقل شيئاً ، حتى لا يبدو أنه يلتمس المحادثة . لا بد أن باتريك شعر بالخوف من أن يطرح عليه أسئلة فصمم على الا يفعل ذلك . رأسه خلف كرسي المسافر ، كان يمكنه برفع عينيه مشاهدة بروفيل باتريك ، المركز على الطريق .

كان ذيل الحصـــان يتدلى على كتفه ، ويـداه على المقود ، سمراء وبارزة العضلات ، مع أوتار نافرة ، بالضبط اليدان اللتان ود نيكولا لو يحظى بهما عندما يصبح كبيراً ،لكنه صار يعلم الآن أن هذا مستحيل . كان جهاز التدفئة يدور بقوة ، لكي يقشع البخار عن الزجاج . كان نيكولا قد ثنى ساقيه ، احتضن يديه بين فخذيـه وأدرك بدهشـــة انـه يستطيع الاسترخاء ، وأن يدع نفسه مهدهداً كأنه مصاب بالحمى من الحرارة والموسيقا المنتحبـة والهادئـة ، وصوت الماسحة المسكّن . كان قد حسب في الذهاب عدد الكيلو مترات على الخارطة ٤٣٠٠ ، ولم يقطعا منها بعد ٢٠ . كان في أمان ما دام لن يغادر السيارة .

عندما استيقظ ، كانا يسيران على الأتوستراد . لـم يعد يوجد ثلج ، لكن السماء كانت بيضاء . لم يقلب باتريك الشريط ، دون شك حتى لا يكدر غفوته . كان قـد أوقف الماسحة . كان ينظر أمامه ، جسده منتصب تماماً ، وذيل الفرس على كتفه ، كأنه لم يحرك ساكناً منذ المغادرة . حين نهض نيكولا تحقق حتماً من ذلك ، لكنه لزم الصمت . بعـد بضــع دقائق فقط ، ارغم نفســه على القول بنبرة تتوخى المرح : « إذن ، نمت نوماً عميقاً ؟ » فرد نيكولا بالإيجـاب، ثم ساد الصمت من جـديد . راح نيكولا يراقب لوحـات الارشاد لكي يعرف مقدار المسافة التي ما زالت تفصلهما عن

المدينـــة التي يقطنها ، ٢١٠ كيلو متر . لقـــد قطعا تقريباً نصف الرحلة . لام نفسه لأنه ترك نصف المسافة الأول يمر بسرعة وهو نائم . صار يخمن أنه ابتداء من الآن سيتسـارع كل شيء .

انعطف باتريك نحو اليمين ، تمهل وخفف السرعة في الممر المفضي إلى محطـة إسو . فكـر نيكولا بقسائم هدايا محطة شل وأخذ يبكي فجأة . كانت هذه دموعاً وليست نحيباً ، راحت تسيل بصمت على وجنتيه . ما كان باتريك ليلاحظ شيئاً ، لو لم يتوقف في هذه اللحظة أمام مضخات الوقود ، ويلتفت نحوه ، لم يستطع نيكولا التوقف عن البكاء لكنه غض بصره . ظل باتريك لبرهة وهو جالس على مقعده مواربـة ، ينظر إليـه دون أن يقـول شـيئاً ، تمتـم : « نيكولا ... » مرة أخرى . هذا كل ما بقي ممكناً ، تكرار اسمه بحب ويأس . لابد أن أهل رينيه فعلوا ذلك أيضاً ، في الليل ، وهم راقدون في السرير الذي لن يناموا فيه أبداً بعد بهنـاء ، وأهـل الطفـل المحتجز بالتخدير الفاشل ، أمـا الآخرون، كالشرطي وماري-آنج ، فيقولون أيضاً « المولى » « القديسة العذراء » « السيد المسيح » . لـم يعد بوسع الناس أن يكلموه ، لذلك فإنهـم يتمسكون ؛ سـواء كانوا مؤمنين أم لم يكونوا ، بهذه الوسيلة الأخيرة : أن يصلوا لأجله وأن يطلبو من المسيح ، سواء شفي أم لا ، الرحمة له .

« توصل باتريك إلى القول : هيا يا نيكولا ، سنذهب لنأكل شيئاً . انت لم تتناول إفطارك . لابد أنك جائع » لم يكن نيكولا جائعاً وكان يظن أن باتريك كذلك ، لكنه تبعه بعد ان ملأ الخزان ، إلى استراحة الأوتوستراد .

كان يوجد قرب المدخل واجهة عرض الصحف التي أصيب باتريك أمامها لبرهة بالذعر . بذل مابوسعه لكي يتقدمه ، ويحول انتباه نيكولا الذي استسلم بخضوع ، لكن الوقت سنح له رغم ذلك ليلمح الصورة وكلمة « وحش » في العنوان المتواري جزئياً بواسطة ثنية الصحيفة . سحبه باتريك بسرعة نحو الموزع وتأكد أنه يمكنهما الخروج من باب آخر . طلب قهوة ، واشترى قطعة خبز بالشوكولاة وعصير برتقال لنيكولا ، ثم توجها للجلوس في الركن ، قرب المغاسل، حيث كانت توجد ثلاث طاولات بلاستيكية رمادية ذات سطح دبق ، محملة بأقداح فارغة من الكرتون . حيا باتريك بتهذيب شاغلة المكان الوحيدة ، وهي امرأة شقراء كانت تحتسي القهوة . ردت التحية وابتسمت لنيكولا بابتسامة اخترقته .

كان معطفها من الفرو ، زاه كأنه مغطى بالندى ، مفتوح على فستان أزرق من مادة متحركة ، رائعة . يفلت من جديلتها الطليقة شعر أشقر على القذال تراود المرء الرغبة بمداعبته . تولد إحساساً بالغنى والترف ، متناقضاً مع الرتابة القذرة للمكان ، إلا أنها تولد على الأخص إحساساً

باللطف ، لطف أخاذ وسحري ، يكاد يتعذر الدفاع عنه .
كانت جميلة ، رائعة ، لطيفة وجميلة . راحت تنظر بهدوء
ودون تلهف ، إلى الموقف في الخارج ، وإلى المكان الكئيب
حولها ، وحين غادت نظراتها ثانية إلى نيكولا ، ابتسمت له
من جديد ، بابتسامة لم تكن شاردة ، ولا ملحة أيضاً ، لكنها
كانت توحه إليه شخصياً ، وتلفه بكامله بهذا الحنان الإلهي
الذي ينبعث منها . كان الثوب الحريري الأزرق ، المقور
إلى الأسفل كفاية ، يكشف عن بداية نهديها ، وراود نيكولا
خاطر غريب : لابد أن يكون داخل جسدها ، احشاؤها
وأمعاؤها والدم الجاري في عروقها ، بمثل نقاء وسطوع
ابتسامتها . تذكر الجنية الزرقاء لـ بينوكشيو ، بقربها ،
لا يعود المرء يخشى شيئاً . كان بوسعها ، لو أرادت ، إزالة
الرعب ، وجعل ما لم يكن هو الذي كان ، ولو علمت لأرادت،
كان هذا مؤكداً .

نهض باتريك وقال إنه سيذهب دقيقة إلى المغاسل .
ادرك نيكولا أنه سيجازف بحياته في هذه الدقيقة . كان ينبغي
أن يتكلم إلى الجنية . أن يقول لها أن تنقذه ، وتصحبه معها
إلى حيث تذهب . لن يضطر للشرح ، كان واثقاً أنها ستفهم،
وأنه ستكفي جملة . « انقذيني يا سيدتي ، اصطحبيني »
ستدهش لبرهة ، لكنها ستنظر إليه بانتباه ، مع هذا
الإهتمام وهذا اللطف اللذين يخترقان القلب ويولدان الرغبة
بالبكاء ، وستعلم حينئذ أنه يقول الحقيقة ، وأنها وحدها

يمكنها تحقيق المعجزة . ستقول : « تعال » وستمسكه بيده . سيركضان حتى سيارتها ، ويغادران الأوتوستراد عند اول مخرج . سيسيران فترة طويلة ، وهو إلى جوارها. ستبتسم له ، وهي تقود ، وتهمس له أن الأمر انتهى الآن . سيذهبان بعيداً ، بعيداً جداً ، إلى حيث تجري حياتها التي تشبهها ، لطيفة ، رائعة وجميلة ، وستسمح له بالبقاء دوماً قربها ، بعيداً عن الخطر ، في سلام .

فتح نيكولا فمه ، لكن لم يخرج منه اي صوت . كان ينبغي أن يلفت انتباهها ، وان يبلغ الرسالة بعينيه على الاقل . كان ينبغي ان تنظر إليه ، وتقابل توسله الصامت ، سيكفي ذلك لكي تفهم . أجل ، أجل ، ستفهم . ستستطيع تخمين القلق الذي يعتمل داخل هذا الصبي الصغير المصادف في استراحة الأوتوستراد ، والذي يمكنها وحدها تخليصه منه . لكنها لم تعد تنظر إليه ، اصبحت تنظر خارجاً ، متابعة بعينيها رجلاً مرتدياً الأسود يمشي بخطى واسعة على الموقف نحوهما . شاهد نيكولا ، وحلقه غاص ومتحشرج بالصمت الذي يصعد من بطنه ، الرجل يقترب ويدفع الباب الزجاجي . أمال نحو المراة وجهاً عاشقاً وطبع قبلة على عنقها ، قرب الشعر المجنون الفار من الجديلة . اخذت تبتسم له بابتسامتها الالهية . لم تعد ترى إلا هو . لم يكن نيكولا قد كره أحداً في حياته قط كهذا ، ولا حتى هودكان .

« قال الرجل : لقد أصلحت ، يمكننا الانطلاق بها » .

نهضت الجنية وخرجت معه . أشارت لنيكولا بإشارة صغيرة من يدها وهي تغلق الباب ثانية ، ثم أدارت له ظهرها. طوق الرجل كتفيهـا بذراعيه لكي يدفئها وشاهدهما نيكولا يبتعدان نحو سيارتهما ، يصعدان فيها ، ويختفيان . كانت اصابعه متشابكة تحت الطاولة ، معقود بعضهـا في بعـض بطريقة مبهمة ، ولمح على الأرض ، بين قدميه ، خيطاً أحمر وأزرق ينسل بين اكوام السكر واعقاب السكائر . كـان السوار البرازيلي قد سقط . حـاول أن يتذكر الأمنيـة المصاغة حين عقده له باتريك قبل أسبوع ، لكنـه لم يفلح في ذلك : لعله من فرط تردده ، باحثاً عن شخص قد يحميه على أكمل وجه من كل الأخطار في حياته ، لم يصغها بتاتاً .

- ٣١ -

تساءل نيكولا بقية الرحلة عما كانت كلماته الأخيرة . إجابة مقتضبة دون شك ، موجهة لباتريك في السيارة . كان قد قرر الا يتكلم بعد ، الا يتكلم بعد أبداً . إنها الحماية الوحيدة التي يمكنه تخيلها حالياً . ولا كلمة بعد ، لن يسحب احد منه شيئاً بعد : سيصبح كتلة صمت ، وسطحاً أملس وماطر يثور البؤس ضده دون أن يجد منفذاً . سيكلمه الآخرون ، إذا شاؤوا وإذا تجرؤوا ، ولن يجيبهم . لن يستمع إليهم . لن يستمع إلى ما ستقوله أمه له ، حقيقة او اختلاقاً ، سيكون ذلك دون شك اختلاقاً . ستروي انه وقع حادث لوالده لدى عودته ، وأنه لسبب أو لآخر لايمكنهم زيارته في المشفى . او انه مات ،ولن يذهبوا كثيراً إلى مأتمه، او الاستغراق في التأمل على قبره . سيغيرون أيضاً المدينة . وسيغيرون ربما الاسم على أمل أن يستنفذوا الصمت والعار اللذين سيغدوان بعد الآن نصيبهم ،لكن لن تكون هذه مشكلته بعد ، فهو سيصمت ، سيصمت دوماً .

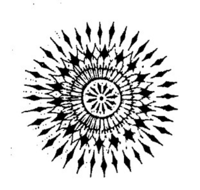
حين وصل باتريك إلى ضواحي المدينة ، اعاد قراءة العنوان الذي كتبَ له على قصاصة ورقة وسأل نيكولا إن كان يعرف طريقة الذهاب إلى منزله . لم يجبه نيكولا . كرر سؤاله ، ساعياً إلى التقاط نظرته في المرآة العاكسة ، لكن نيكولا غض بصره ، فلم يلح . توقف أمام شرطي فأخبره بذلك . ثم سارا عبر الضاحية ، تحت المطر . كان الشارع الذي يسكنه نيكولا في الاتجاه المعاكس ، فاضطر للدوران حول مجموعة بيوت ، إلا انه كانت توجد فسحة فارغة تماماً أمام الباب . ركن باتريك السيارة فيها وأعاد صفها مرتين لأجل الفتحة . انزل نيكولا وامسكه بيده كطفل صغير ، لكنه لم يتكلم ولم يردد اسمه . لم يعد وجهه الجاف يفصح عن اي شيء .

في المدخل الضيق للبناء ، نظر باتريك إلى الأسماء فوق صناديق البريد . كان قد خمن أن نيكولا لن يساعده في العثور على المنزل . انتظرا المصعد بصمت . أزّ البابان السحابان وهما ينغلقان عليهما ثانية . تأخر باتريك أكثر من المعتاد في الضغط على زر الطابق . كان قد احتفظ بيد نيكولا في يده وشد عليها بقوة . شاهده نيكولا في المرآة الكامدة التي تزين الحاجز يبكي . بدأ الصندوق الذي احتجزا فيه يغوص في الأرض ، ثم ارتفع بهزة . كانا يسمعان صرير الكابلات . أمل نيكولا أن تتوقف الحجرة بين طابقين ، وأن يبقيا فيها دوماً . أو أن تنفك بعد أن تصعد قدراً كافياً من

الارتفاع ، وتهوي بأقصى سرعة في البئر الأسود الذي سيطويهما .

كان بهو الدرج ممراً طويلاً دون نوافذ ، محاطاً بالأبواب، وكان باب منزله يوجد في الصدر تماماً . كان زر مؤقت الإنارة يلمع يوهن في الظلام ، لم يضئه باتريك . تقدما سوية في المر بمنتهى البطء . تذكر نيكولا جملة باتريك في الصباح: « ماذا ستصبح حياته ؟ » وصلا إلى الباب ، الذي لم يكن يسمع خلفه أي ضجيج . رفع باتريك يده نحو زر الجرس ، انتظر أيضاً فترة أطول من التي انتظرها في المصعد ، وضغط الزر أخيراً . حرر يده الأخرى برفق من يد الطفل . لم يعد بمقدوره فعل شيء لأجله الآن . كان الموكيت يكتم صوت الخطى داخل الشقة ،لكن نيكولا بات يعلم أن الباب سينفتح، وأنه في هذه اللحظة ستبدأ حياته ، وأنه لن توجد في هذه الحياة بالنسبة له مغفرة .

٢٠٠٠ ط١ /٦/١٩٩٩





الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر
١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٢٠٠ ل.س